مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية
ISSN: 2709-0302 (online)
Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2617-5908 (print)



معارضة الشيخ محمد بن فيروز لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب(*)

د/ علي عوض آل قطب
أستاذ التاريخ الحديث المشارك
قسم التاريخ والآثار بجامعة الملك خالد
منطقة عسير، مدينة أبها - السعودية
alawasiri@kku.edu.sa

*) تاريخ تسليم البحث 15/9/2025 تاريخ قبوله للنشر 26/10/2025
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

معارضة الشيخ محمد بن فيروز لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

د/ علي عوض آل قطب
أستاذ التاريخ الحديث المشارك
قسم التاريخ والآثار بجامعة الملك خالد
منطقة عسير، مدينة أبها - السعودية

الملخص

تبحث هذه الدراسة في معارضة الشيخ محمد بن فيروز التميمي الحنبلي لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتسعى إلى فهم العوامل التي دفعته إلى تبني هذا الموقف من الدعوة، وتحاول أن تستقصي مسارات هذه المعارضة والتي تشمل المسار الشرعي عبر رصد الجدل الذي دار بينه وبين الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والمسار التعليمي عن طريق تأليب طلابه على اتخاذ موقفه من الدعوة، والمسار السياسي المتمثل في توظيف شبكة علاقاته مع القوى السياسية للتحريض على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وقد توصلت هذه الدراسة إلى أن شيوخ هذا الفقيه، فضلًا عن مشربه الصوفي وموقفه الحاد من منطقة نجد كانت العوامل الرئيسة في معارضته، والتي تعد الأبرز والأشد شراسة تجاه دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والدولة السعودية الأولى.

Sheikh Muhammad ibn Fayruz's Opposition to the Call of Sheikh Muhammad ibn Abd al-Wahhab

Dr. Ali Awad Al-Qutb
Associate Professor of Modern History
Department of History and Archaeology, King Khalid University
Asir Region, Abha City - Saudi Arabia

Abstract

This study examines Sheikh Muhammad ibn Fayruz al-Tamimi's opposition to the call of Sheikh Muhammad ibn Abd al-Wahhab. It seeks to understand the factors that prompted him to adopt this position. It attempts to explore the paths of this opposition, which include the legal path by observing the debate that took place between him and Sheikh Muhammad ibn Abd al-Wahhab; the educational path by inciting his students to adopt his position on the call; and the political path represented by utilizing his network of relationships with political forces to incite against Sheikh Muhammad ibn Abd al-Wahhab's call.

This study concludes that the sheikhs of this jurist, in addition to his Sufi path and his strident stance towards the Najd region, were the main factors behind his opposition, which was the most prominent and fiercest against the call of Sheikh Muhammad ibn Abd al-Wahhab and the first Saudi state.

مقدمة البحث:

جوبهت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بمعارضة دينية شديدة، تولاها في بداية أمرها عددٌ من العلماء والفقهاء في نجد والأحساء، حيث كتب العديد منهم المؤلفات، والرسائل، التي جاء بعضها ردًا فقهيًا وعقديًا على مبادئ الدعوة، والبعض الآخر منها انطوى على تحريض شديد، وتشنيعٍ كبير على الدعوة وصاحبها، ويمثل الشيخ الحنبلي محمد بن فيروز واحدًا من الفقهاء البارزين الذين عارضوا دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب معارضة كبيرة، سواءً كان ذلك من خلال كتاباته، أو من خلال كتابات تلاميذه الذين تلقوا العلم على يديه، وأخذوه عنه.

والواقع أن أخبار معارضة هذا الفقيه لدعوة الشيخ محمد مبثوثة في العديد من المصادر المتنوعة، ذات الاتجاهات المختلفة، فبقدر ما ورد من الأخبار المتعلقة بمعارضته في مظان المصادر المعارضة للدعوة، فقد أشير إليها كذلك في المصادر المؤيدة لها، سواءً كانت هذه المصادر ضمن الكتابات التاريخية التي أرّخت للدعوة، أو ضمن تراثها الديني.

إن هذه الدراسة من الأهمية بمكان، لكونها يمكن أن تعطي فكرة عامة عن طبيعة المعارضة التي شهدتها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عطفًا عن كونها ترومُ إماطة اللثام عن المسائل الفكرية التي اشتغل بها معارضو الدعوة في سبيل النيل منها، والحط من شأنها، يضاف إلى ذلك أن هذه الدراسة من شأنها أن تكشف عن الدور التاريخي الذي اضطلع به العلامة ابن فيروز تجاه الدعوة، وتجاه صاحبها.

إن هذه الدراسة تسعى إلى تحقيق جملة من الأهداف، يمكن عرضها فيما يلي:

١- معرفة مكانة الشيخ ابن فيروز في الوسط العلمي الذي نشأ فيه.

٢- الكشف عن علاقة الشيخ ابن فيروز بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والتأريخ لمعارضته منذ بواكير ظهورها.

٣- إبراز الأسباب الحافة التي دفعته إلى معارضة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

٤- تسليط الضوء على المسارات المتعددة التي سلكها الشيخ ابن فيروز في معارضته.

وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف، فإن هذه الدراسة وبصرف النظر عن كونها ستتناول بالبحث والاستقصاء سيرة ابن فيروز، ومكانته في الوسط الفقهي والعلمي الذي نشأ فيه، فضلًا عن كونها ستتوخى تتبع صنوف معارضته للدعوة، عبر رصد أقواله، ونشاطه العلمي، فإنها ستحاول الإجابة على عددٍ من الأسئلة، يمكن صياغتها على النحو التالي:

١- ما علاقة مشايخ ابن فيروز في تبلور معارضته للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهل كان متأثرًا بشيوخه في مواقفه المناهضة للدعوة؟

٢- متى بدأت معارضة الشيخ ابن فيروز تتخذ شكلًا علنيًا للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وما السياقات التاريخية لمؤلفات التي رد بها على الشيخ محمد؟

٣- ما أبرز نقاط الاختلاف بين الشيخ ابن فيروز والشيخ محمد بن عبد الوهاب؟

٤- وكيف كانت مناقشته للمسائل الخلافية بينهما، وما سياقها التاريخي الذي نشأت فيه، وما أبرز المسوغات النظرية والمنهجية التي قدمها في سبيل تعضيد حججه ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب؟

٥- إذا كان ابن فيروز سلك مسلكًا شرعيًا جدليًا مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فما المسالك الأخرى التي سلكها في سبيل معارضته؟

وفي إطار الإجابة على هذه الأسئلة فقد جرى تقسيم هذه الدراسة إلى مبحثين اثنين، هما:

المبحث الأول: الشيخ محمد بن فيروز وأسباب معارضته

المبحث الثاني: مسارات معارضته

وغنيٌ عن البيان، أن المنهج المتبع في هذه الدراسة هو منهج البحث التاريخي، المعتمد على المصادر الأصلية سواءً أكانت مصادر مخطوطة أم مطبوعة، إضافة إلى المراجع والدراسات التاريخية الحديثة التي يمكن توظيف رؤاها ونتائجها في الدراسة، مع تطبيق استخدام المقارنة على معلومات المصادر التاريخية، وإعمال النقد، والتحليل، والمقابلة بين العديد من متون المصادر ونصوصها بغية الوصول إلى الحقائق التاريخية، متوخين في ذلك أن يكون الاستناد على هذه المصادر والمراجع وفق المنهج العلمي، من خلال تطبيق شروط الإحالة، واتباع الأمانة العلمية.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم،،،

المبحث الأول: الشيخ محمد بن فيروز وأسباب معارضته

عُرف الشيخ محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب بن عبد الله بن فيروز في المصادر التاريخية لا سيما مصادر تراث دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بـ (ابن فيروز) (العاصمي، ١٤١٧هـ) جاء هذا المسمى نسبةً إلى جدّه الرابع، ومن المحتمل أن رفع اسمه مباشرة إلى هذا الجد، والتغافل عن بقية أجداده، جاء تمييزًا له كون ذلك لن يكون دالًا عليه في حال نُسب إلى آبائه الآخرين على اعتبار أن أسماءهم مثل: محمد، وعبد الوهاب، وعبد الله تعدّ أسماءً دارجة بكثرة في بيئته بحيث يبدو من المتعذر تمييزه لو نُسب إلى أحدها، فضلًا عن كون نسبه ربما يكون محفوظًا ومتيقنًا منه عند بلوغه "فيروز" الذي يمثّل الجد الرابع له، وأن ما وراء ذلك من أسماء ربما يكون ضبطها، ومعرفة حالها عسيرًا للغاية خاصة مع استحضار قلة التدوين، وضعف العلم في الفترة التي سبقت حياة الشيخ ابن فيروز، ورغم أن لفظ (فيروز) يبدو اسمًا أعجميًا، إلا أن المصادر التاريخية تتفق على نسبه العربي العريق، بوصفه يرتفع إلى آل مشرف من تميم المضرية (البسام، ١٤١٩هـ).

كانت ولادة الشيخ ابن فيروز في الأحساء، أما تاريخها فثمة اختلاف يسير حولها، فبعضها يقرر أنها كانت في عام (١١٤٢هـ)، (ابن سند، ١٤١٦هـ)، والبعض الآخر حددها بعام (١١٤١هـ) (العسافي، ب. ت)، والصحيح أنها كانت في هذا العام الأخير، ذلك أن أحد المصادر التاريخية أرّخ ولادة الشيخ ابن فيروز على نحو دقيق، إذ جاء فيه: "ولد في ضحوة ١٨ ربيع الأول سنة (١١٤١هـ)" (العتيقي، ب. ت)، ما يجعل هذا النص صحيحًا أنه صادر عن الشيخ صالح العتيقي[١] الذي يعد أحد أبرز طلاب الشيخ ابن فيروز، وأحد الملازمين له.

نشأ ابن فيروز في كنف والده، ويشير أحد المصادر التاريخية إلى أن بصره كفّ في صغره (ابن سند، ب.ت، ص٢٩١)، من دون أين يحدد أسبابه، ومتى كان ذلك، غير أن ابن حميد في السحب الوابلة قرر أن ذلك حدث عندما كان عمره ثلاث سنوات، متأثرًا بمرض الجدري (ابن حميد، ص٩٧٠)، ورغم ذهاب بصر الشيخ ابن فيروز إلا أن ذلك لم يكن عائقًا له عن طلب العلم، بل ربما كان حافزًا، فانكب ينهل من معين والده العلمي، الذي كان

---

(١) صالح بن سيف العتيقي: فقيه، وشاعر، ولد عام (١١٦٣هـ)، في حرمة إحدى بلدات سدير، نشأ في بيتٍ علمي عريق، حيث كان أبوه وأخوه، وأبناء أخيه من الفقهاء، تلقى العلم على يد علماء عصره، أبرزهم الشيخ ابن فيروز الذي لازمه ملازمة تامة في الأحساء، ثم انتقل معه إلى الزبير حيث توفي بها سنة (١٢٢٣هـ/١٨٠٣م)، انظر: ابن حميد، السحب الوابلة، ج٢، ص٤٢٩؛ البسام، علماء نجد، ج٢، ص٤٧٤ – ٤٧٧.

متضلعًا في الفقه، ولعل ما يبرهن على رسوخ والده في العلم أحد النصوص التي جاءت على لسان الشيخ عبد الرحمن بن حسن(1) حيث قال عن رحلات جده – الشيخ محمد بن عبد الوهاب – العلمية ما لفظه: "ثم إن شيخنا رحمه الله رحل إلى الأحساء وفيها فحول العلماء، منهم عبد الله بن فيروز، أبو محمد الكفيف، ووجد عنده من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ما سُرّ به، وأثنى على عبد الله هذا بمعرفته بعقيدة الإمام أحمد"، (ابن حسين، ١٤٢٦هـ) ولم يتوقف طلب العلم عند الشيخ ابن فيروز عند والده، بل أخذ عن جماعة من علماء عصره، مثل: الشيخ محمد بن عفالق(2) الذي لازمه ملازمة كلية، فأخذ عنه في التفسير، والحديث، والفقه، والفرائض، والحساب (ابن حميد، ص٩٧٢)، كما أخذ عن علماء آخرين مثل: أبو الحسن السندي(3) نزيل المدينة المنورة، والشيخ محمد سعيد سفر المدني(4)، والشيخ سلطان الجبوري البغدادي ثم المدني(5)، والشيخ سعد بن غردقة الإحسائي(6)، والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف الإحسائي(1)، والشيخ محمد حياة السندي(2)، هؤلاء جميعهم أخذ

---

(١) عبد الرحمن بن حسن: فقيه حنبلي، وهو حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولد في عام (١١٩٣هـ/١٧٧٩م)، ونشأ على يد علماء نجد، أسرته قوات محمد علي باشا، ولبث في الأسر سنين طويلة، ثم عاد إلى نجد، ليصبح المرجع الديني الأبرز للدولة السعودية الثانية، ترك العديد من المؤلفات في العقيدة، والفقه، توفي سنة (١٢٨٤هـ/١٨٦٧م)، انظر: البسام، علماء نجد، ج١، ص١٨٠—٢٠٢.

(٢) محمد بن عبد الرحمن بن حسين بن عفالق: فقيه، حنبلي، ولد بالأحساء عام (١١٠٠هـ/١٦٨٩م)، ونشأ بها، ورحل إلى دمشق، وبغداد، والبصرة، والزبير، برع في الفقه، والأصول، والعربية، وحين ظهرت الدعوة الوهابية عارضها معارضة شديدة، وكتب عدة رسائل في الرد عليها، لعل أشهرها: تهكم المقلدين في مدعي تجديد الدين، توفي في عام (١١٦٤هـ/١٧٥١م)، انظر: ابن حميد، السحب الوابلة، ج٣، ص٩٢٧، ٩٢٨؛ آل بسام، مرجع سابق، ج٦، ص٣٨ — ٤٣.

(٣) أبو الحسن السندي: محمد بن عبد الهادي، ولد في السند، ثم رحل إلى المدينة، ودرس بالحرم النبوي، اشتهر بالفضل، والذكاء، والصلاح، ويشير أحد المصادر إلى أن وفاته كان سنة (١١٣٨هـ/١٧٢٦م)، انظر: المرادي، خليل: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، تحقيق: محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ج٤، ص٥٠. فإن صح هذا فيعني أن ابن فيروز حتمًا لم يدرس على يديه، على اعتبار أن ولادته كانت قبيل وفاة هذا الفقيه الحنفي، أو ربما أن ثمة عالمًا آخر غير هذا يحمل الكنية والاسم عينه.

(٤) محمد سعيد سفر المدني: فقيه حنفي، ولد بمكة، ثم ارتحل في طلب العلم، له بعض التصنايف في الفقه. توفي سنة (١١٩٤هـ/١٧٨٠م)، انظر: أبو الخير، عبد الله مرداد: المختصر من نشر النور، اختصره ورتبه: محمد العمودي وأحمد علي، عالم المعرفة، جدة، ط٢، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص٤٣٦، ٤٣٧.

(٥) سلطان الجبوري: فقيه شافعي، ولد في العراق، ودرس بدمشق والحجاز، له عددُ من الكتب والمصنفات في القراءات والنحو. توفي على طريق الحج العراقي سنة (١١٣٨هـ/١٧٢٦م)، الزركلي، الأعلام، ج٣، ص١١٠. وهذا العالم إن صحت أن وفاته في هذا العام ربما كان على غرار أبي الحسن السندي لم يأخذ عنه ابن فيروز، وإنما أخذ عنه بعض شيوخه مثل ابن عفالق وغيره.

(٦) سعد بن غردقة: ليس له ترجمة في المصادر التي أمكنن الاطلاع عليها غير أن ثمة إجازة أجاز بها سلطان الجبوري تلميذه ابن غردقة، حيث كتب هذا الأخير في خاتمتها إجازة لتلميذه ابن فيروز، وكان ذلك في العشرين من محرم سنة (١١٦٧هـ/١٧٥٤م)، انظر: إجازة سلطان الجبوري لا بن غردقة، (مخطوط)، ورقة: ١٢، نسخة منها في مكتبة وليد الزيداني الخاصة بالشعبين، ولدى الباحث نسخة منها.

عنهم في علم الحديث (البسام، ص٢٤٠)، ومن خلال تتبع بعض النصوص المؤرخة لسيرته يلحظ أن نبوغه العلمي كان كبيرًا ولافتًا، وهذا ما يفسر الألقاب والنعوت التي وصف بها في أثناء الحديث عنه، فقد وصفه أحدهم بأنه "العلامة الفهامة، كاشف المعضلات، وموضح المشكلات، ومحرر أنواع العلوم، ومقرر المنقول والمعقول بالمنطق والمفهوم" (ابن حميد، ص٩٧٢)، كما وصفه آخر بقوله: "العالم الجهبذ الكريم، الجامع أعلى خلال التعظيم" (ابن سند، ص٩٢٠)، ويقول أحد طلابه "إمام، فاضل، عالم ورع، تقي زاهد" (العتيقي، مخطوط في ترجمة ابن فيروز، ورقة١)، ويقول في موضع آخر مبرزًا سلوكه الديني: "واحد دهره، وفريد عصره، حسن الاعتقاد، ومهذب الأخلاق، لا يهاب الملوك، ولا يخاف في الله لومة لائم، كثير العبادة والذكر، وله حظ من قيام الليل لا يرقد إلا نصفه".

والواقع أن الشيخ ابن فيروز ما كان ليحوز على هذا النحو من الأوصاف والنعوت، لولا تفوقه على أقرانه، ونبوغه العلمي الذي ظهر في بواكير حياته العلمية، ذلك أن فحص نصوص المعتنين بسيرته، وتتبع أقوالهم يؤكد هذا الرأي حيث ورد عند ابن حميد ما لفظه: "ووضع الله فيه من سرعة الفهم، وقوة الإدراك، وبطء النسيان، وشدة الرغبة والحرص، والفتوح الباطنة والظاهرة ما يتعجب منه" (ابن حميد، ص ٩٧٠، ٩٧١)، وبعد أن يسرد ابن حميد عددًا من أسماء المتون التي يحفظها الشيخ ابن فيروز عن ظهر قلب، يعلق قائلًا: "وبالجملة فقد كان في الحفظ آية باهرة، متوقد الذكاء، كأن العلوم نصب عينيه" (ابن حميد، ص٩٧١)، ويشاطر ابن حميد في مسألة نبوغ الشيخ ابن فيروز أحد تلامذته الذي قال عنه: "قل علم من العلوم إلا وله فيه سهم صائب، من فقه وأصوله، وحديث وأصوله، وتفسير، ونحو، ومنطق، ومعاني، وبيان، وعروض، وحساب، وفلك، وفرائض، وطب، وتعبير، وغير ذلك" (العتيقي، مخطوط في ترجمة ابن فيروز، ورقة: ١).

وبسبب هذا النبوغ العلمي الكبير لم يكن غريبًا أن تصفه المصادر التاريخية أنه اضطلع بمهمة التدريس، وكتابة الفتوى وشيوخه أحياء، يقول أحد المصادر راصدًا رؤية علمائه له: "وتصدر وهو غلام، فيه على كل إمام" (ابن سند، ١٤١٦هـ)، ويقول آخر: "وهكذا مهر في جميع العلوم والفنون، وتصدر للتدريس" (البسام، ١٤١٩هـ)، والحال أن تصدره للتدريس وإطلاقه للفتاوى وشيوخه أحياء لم يكن النتيجة الوحيدة المترتبة على نبوغه العلمي، بل ثمة نتيجة أخرى لا تقل أهمية، وتتمثل في كونه بات مقصدًا لطلبة العلم سواءً حينما كان في الأحساء أو في أثناء انتقاله إلى العراق، ففي الأحساء وقبيل رحيله كان يعد "عمدة الحنابلة في الأحساء"، (العتيقي، مخطوط في ترجمة ابن فيروز، ورقة: ١) وكان يجتمع عنده عشرات الطلاب وربما المئات منهم، ويشير أحد المؤرخين إلى أن بيته بات مقامًا للطلبة الغرباء، حيث كان يجتمع عنده أكثر من خمسين طالبًا من الغرباء، ثم يشير هذا المؤرخ إلى مركزية الكرم التي جُبل عليها الشيخ ابن فيروز تجاه طلابه، إذ يقرر أنه كان يقوم بكفاية هؤلاء الطلاب، والإنفاق عليهم،

---

(١) عبد الله بن عبد اللطيف: فقيه شافعي أحسائي، ولد بالأحساء، وأخذ العلم عن علمائها، ثم ارتحل إلى الحرمين، كان مبرزًا في الفقه الشافعي، تولى القضاء في الأحساء، وكانت وفاته سنة (١١٨١هـ/١٧٦٧م)، انظر: العصيمي، بندر: موقف علماء الأحساء من الدعوة الإصلاحية في نجد، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، السنة: ١٤، العدد: ٢٩، ٢٠١٤م، هامش ص١٥٧.

(٢) محمد حياة السندي: فقيه ومحدث، ولد بالسند، ثم ارتحل إلى الحرمين، واستقر بالمدينة النبوية، له تصانيف كثيرة في الفقه والحديث، توفي سنة (١١٦٣هـ/١٧٥٠م)، انظر: المرادي، سلك الدرر، ج٤، ص٥٠.

حتى لو كانوا أغنياء، ويقول مخاطبًا إياهم: "من لم ينتفع بطعامنا لا ينتفع بكلامنا"، ويضيف أنه كان يعول في بيته نيفًا وسبعين نفسًا (البسام، ١٤١٩هـ).

وهذا النص السابق يتسق تمامًا مع ما ذكره أحد طلابه حين وصفه بأنه "سخي النفس، كثير الصدقات والخير" (العتيقي، مخطوط في ترجمة ابن فيروز، ورقة: ١)، ولأن بيت الشيخ ابن فيروز استحال إلى مؤسسة علمية تضم طلبة علمٍ مقيمين، يقوم على كفايتهم، والإنفاق عليهم، فقد كان مؤدى ذلك أن اقتنى مكتبة كبيرة، تضم نفائس الكتب، وجلب لها عددًا من النساخ لاستنساخ الكتب، وفي هذا السياق ثمة نص مهم أورده صاحب السحب الوابلة جاء فيه: "وكان له نهمة عظيمة في تحصيل الكتب، واستنساخها، وكذلك ابنه الشيخ عبد الوهاب، فكان جماعة من طلبة العلم يكتبون لهم كتب العلم مدى أوقاتهم، فكتبوا له شيئًا كثيرًا جدًا (ابن حميد، ص٩٧٧).

إن معلومات هذا النص المتسمة بالطرافة قد تُفسر عند القراءة العجولة بأنها لا تعدو أن تكون واحدة من المبالغات التي حيكت عن الشيخ ابن فيروز خاصةً مع استحضار أن مصدر هذا النص متحيزٌ له، وبالتالي فلديه الرغبة الكبيرة في وضع هذه الشخصية في موقع مثاليٍ، ووضع دورها العلمي في سياق تبجيلي، غير أن ما يبرهن على مصداقية هذا النص ما ذكره أحد المؤرخين الذي كان يبدو من خلال كتابته التاريخية عن الشيخ ابن فيروز مخالفًا له لا سيما في موقفه تجاه دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حيث ذكر عن مكتبة الشيخ ابن فيروز أن: "فيها من نفائس الكتب ما لا يوجد في غيرها كما كان لديه نساخًا دائمين" (البسام، ١٤١٩هـ)، وبصرف النظر عن اتساق هذا المؤرخ مع ما ذكره صاحب السحب الوابلة، فإن ما يبرهن على صحته ما كشفت عنه خاتمة إحدى النسخ المخطوطة لمسند الإمام أحمد بن حنبل، والتي وقع الفراغ من كتابتها في يوم الخميس الرابع عشر من شهر ذي القعدة سنة (١١٧٩هـ) حيث ورد فيها ما نصه: "هذا آخر ما وجدنا من المسند مسند الإمام المبجل والحبر المفضل أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني...كتبه امتثالًا لأمر المكرم الأسعد الأرشد الشيخ محمد ابن الشيخ عبد الله بن فيروز جعلني الله وإياه ممن برضا مولاه يفوز، وأن يوفقني الله وإياه لما يحبه ويرضاه" (خاتمة مسند الإمام، مخطوط).

ومن المرجح أن هذه المكتبة وما تشتمل عليه من كتب، ونساخ كانت في خدمة طلابه، والقاصدين إليه، على أن استغراق الشيخ ابن فيروز في التدريس، وانشغاله به دون سواه، ترتب عليه عددًا من النتائج، أهمها: أن شهرته تضاعفت أكثر من ذي قبل، إذ "كاتبه علماء الآفاق، وقصدوه بالأسئلة، وطلب الإجازات"، وإذا كانت هذه الشهرة حازها الشيخ ابن فيروز داخل نطاق العلماء، وضمن أروقة العلم، فقد حاز بالتوازي مع ذلك شهرة واسعة في نطاق آخر، إذ باتت له علاقات واسعة مع العديد من الأمراء وأصحاب القوى السياسية، ويمكن تلمس ذلك من خلال ما أورده الشيخ البسام في ترجمته له حيث قال إن هؤلاء الأمراء كانوا "يطلبون منه القضاة، والمدرسين، والمفتين من تلاميذه، فيرسل معهم من يراه أهلًا لذلك فلا يخالفه أحد منهم بل يمتثلون إشارته" (البسام، ١٤١٩هـ).

ولا ريب أن هذا النص البليغ الدال ليس الوحيد في إيضاح مقدار ما بلغه الشيخ ابن فيروز من مكانة سامية لدى القوى السياسية ولدى الأمراء والأعيان، فثمة نص أكثر دلالة، وهو قوله أن الشيخ ابن فيروز "بلغ من الشهرة والزعامة مبلغًا بعيدًا وصل به إلى مكاتبة السلطان محمود خان، وأن السلطان يقدره ويعتقدون فيه" (البسام، ١٤١٩هـ)، على أن هذه الشهرة باتجاهاتها المتوازية، وشبكة العلاقات الواسعة التي رسمها الشيخ ابن فيروز، وكونها تعكس استغراقه في التدريس المصحوب بالكرم والجود الكبيرين، لم تكن النتيجة الإيجابية لهذا الفعل

المثالي، بل ثمة نتيجة أخرى في مقابلها لا تخلو من السلبية وتتمثل في أن هذا الدور جاء على حساب مؤلفاته، وكتاباته، ذلك أن الاستغراق في التدريس، ثناه كثيرًا عن التأليف رغم رسوخه العلمي، ولعل هذا ما يفسر قول أحد المؤرخين عن مؤلفاته بأنها لم تكن: "على قدر علمه" رغم استدراكه بأن "له أجوبة عديدة سديدة، لو جمعت لكان فيها العلم الغزير، والتحقيق، والتدقيق في المسائل الفقهية" (البسام، ١٤١٩هـ).

والحاصل أن هذه النتيجة لم تكن محصورة في الشيخ ابن فيروز فثمة نماذج عديدة من العلماء الراسخين الذين ثناهم الاستغراق في تدريس الطلاب والانكباب على تعليمهم عن التأليف، إذ بدت مؤلفاتهم إما قليلة، أو هشة لا تعبر بحال عن علم مؤلفها، وسعة معرفته[١].

لقد كانت حياة الشيخ ابن فيروز مواكبة لظهور الدولة السعودية الأولى، وانتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ورغم أن ثمة العديد من المشتركات والروابط التي من شأنها أن تجعل الشيخ ابن فيروز مؤيدًا لدعوة الشيخ محمد إلا أن المصادر التاريخية تجمع على خلاف ذلك، بوصفه من أكابر المعارضين لها، وممن سخّر قلمه ولسانه في الرد عليها، أولها الرابط المذهبي، فكلا الطرفين يشكلان امتدادًا لمذهب الإمام أحمد بن حنبل، إذ كان ابن فيروز "عمدة الحنابلة في الأحساء" (العتيقي، مخطوط في ترجمة ابن فيروز، ورقة: ١) ثانيها: الرابط النسبي باعتبار أن الطرفين كليهما ينحدران من آل مشرف أحد بطون قبيلة بني تميم[٢]، الثالث: رابط القرابة، ذلك أن والد الشيخ ابن فيروز ابن عمة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وبتعبير أكثر دقة، كان الشيخ عبد الوهاب بن سليمان – والد الشيخ محمد – خالًا لوالد الشيخ ابن فيروز (البسام، ١٤١٩هـ)، والرابع: الرابط العلمي فقد كان والد الشيخ ابن فيروز تلميذًا عند والد الشيخ محمد بن عبد الوهاب[٣] (ابن داوود، ٢٠٢٢).

ورغم هذه الروابط المتينة والقوية إلا أن ذلك ما كان مانعًا لابن فيروز من إبداء معاداته الكبيرة للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهنا يثور سؤال هام، للغاية يتعلق بالأسباب الكامنة وراء هذه المعارضة؟ أو بمعنى آخر إذا كانت الروابط بين ابن فيروز والشيخ محمد بن عبد الوهاب قوية، تتوزع بين وحدة المذهب، والقبيلة، والقرابة، والعلم، والتي من شأنها أن تفضي إلى علاقة متينة بين الطرفين، فما العوامل التي قوّضت هذه الروابط، وأفضت إلى قطيعة تامة، بل إلى عداءٍ صارخ استعمل فيه ابن فيروز كل ما يمكنه فعله من جدلٍ فكري، وتحريض سياسي؟

والحال أن ثمة عوامل عديدة تقف وراء تبني الشيخ محمد بن فيروز لهذا الموقف العدائي من الشيخ محمد بن عبد الوهاب، غير أن مقاربتها ستكون عبر المزاوجة بين فحص التراث الديني لتلكم الفترة، وبين النظر في السياق

---

(١) من أكبر الأمثلة المشابهة لحالة الشيخ ابن فيروز العلامة الكبير عبد القادر بن أحمد الكوكباني، الذي عاصر الشيخ ابن فيروز، والذي يعد من أكبر علماء اليمن على الإطلاق في عصره، كما قرر بذلك الشوكاني في البدر الطالع، ورغم مكانة هذا العالم الكبير إلا أنه لم يكن ذا مؤلفات كبيرة، بسبب اشتغاله بالتعليم، واستغراقه في إلقاء الدروس. انظر ترجمته لدى الشوكاني، محمد بن علي: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق: محمد حسن حلاق، دار ابن كثير، دمشق، ط١، (١٤٢٧هـ/٢٠١٦م)، ج١، ص٣٩٩-٤٠٥.

(٢) ساق البسام نسب ابن فيروز، ورفعه إلى آل مشرف، ثم إلى تميم. انظر: علماء نجد، ج٦، ٢٣٦؛ أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب فهو كذلك ينحدر من آل مشرف. انظر: تاريخ ابن غنام، ج١، ص٢٠٨.

(٣) ابن داوود، عبد الله: الصواعق والرعود، تحقيق: عبد الله بن راشد المضري، مكتبة الجابي، إيرلندا، ط١، (٢٠٢٢م)، ص٢٧؛ البسام، علماء نجد، ج٤، ص٤٨٧.

التاريخي العام سواءً ذلك السياق الذي يحفّ بالشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته، أو السياق الذي يحفّ بالشيخ محمد بن فيروز وعلاقاته الواسعة لا سيما تلكم العلاقات الخاصة بشيوخه، والفقهاء المعاصرين له، هذه المنهجية، والنظرة المتعددة من أكثر من زاوية أفضت بنا إلى القول بأن أهم العوامل التي دفعت ابن فيروز إلى اتخاذ هذا الموقف هي:

أولًا: تأثره بشيوخه

يأتي في طليعة هؤلاء والده الشيخ عبد الله بن فيروز، والشيخ ابن عفالق، والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف الإحسائي، بوصفهم أقطاب المعارضة لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الأحساء، وهو ما أدى إلى احتذاء الشيخ ابن فيروز بهم، والمشي في ركابهم، ولكي نعرف كيفية تشكل معارضة هؤلاء العلماء لا بد من العودة إلى الأوضاع العلمية في الأحساء، ومراقبة السياق التاريخي الذي في ضوئه تشكلت هذه المعارضة، وفي هذا الصدد يذهب أحد الباحثين إلى أن الأحساء شهدت نشاطًا في الحركة العلمية كان واحدًا من آثار الإمارة الجبرية، التي اهتمت كثيرًا بالعلم والعلماء، ليخلص إلى نتيجة مفادها أن المذهب السني انتشر انتشارًا كبيرًا في الأحساء، وأن تدريس الفقه بالمذاهب الأربعة بات سائدًا في المجتمع الإحسائي (العصيمي، ١٤٣٥هـ).

وفي الوقت الذي كان الشيخ عبد الله بن فيروز والشيخ ابن عفالق رأسا المذهب الحنبلي في الأحساء، كان نظيرهما الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف الإحسائي رأس المذهب الشافعي فيها، وخلال هذه الفترة كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد أنهى رحلاته العلمية، واستقر في حريملاء، وكانت تربطه علاقات بهؤلاء العلماء، تعود إلى أيام طلبه للعلم، سواءً حينما كان يمر بالأحساء أو حتى في أثناء طلبه للعلم في داخل منطقة نجد.

وخلال المدة الواقعة بين نشر الشيخ محمد لدعوته في حريملاء بعد عام (١١٥٤هـ/١٧٤١م)، ثم استقراره برهة من الزمن في العيينة، أي قبيل انتقاله إلى الدرعية عام (١١٥٧هـ/١٧٤٤م) يشير أحد الباحثين إلى أن زمرة من العلماء داخل منطقة نجد، تبنوا موقفًا معارضًا من دعوته، من أبرزهم: أبرزهم: سليمان بن سحيم[١] في الرياض، وعبد الله المويس[٢] في حرمة، وسليمان بن عبد الوهاب[٣] في حريملاء، وغيرهم، هذه الزمرة ستكون نواةً لتيار

(١) سليمان بن محمد بن سحيم: فقيه، وقاض، ولد عام (١١٣٠هـ/١٧١٨م) في المجمعة، ودرس على يد والده وبعض علماء نجد، ثم استوطن الرياض، فكان مدرسًا فيها، وإمامًا ومفتيًا بها أثناء إمارة دهام بن دواس، وعند ظهور الدعوة الوهابية عارضها معارضة شديدة، غير أن انتشارها، وخضوع مجمل مناطق نجد للدولة السعودية الأولى، حتّم عليه الارتحال إلى العراق، حيث استقر في الزبير، وتوفي بها عام (١١٨١هـ/١٧٦٦م)، انظر: ابن حميد، السحب الوابلة، ج٣، ص١١٤٨؛ آل بسام، مرجع سابق، ج٢، ص٣٨١، ٣٨٢.

(٢) عبد الله بن عيسى المويس: فقيه، وقاض، ولد في حرمة بسدير في منطقة نجد، وبها نشأ، أخذ عن علماء بلدته، ثم رحل إلى دمشق، ثم عاد إلى حرمة، فكان قاضيًا فيها، عارض الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكان من ألد خصومه، توفي سنة (١١٧٥هـ)، انظر: البسام، علماء نجد، ج٤، ٣٦٤-٣٦٩.

(٣) سليمان بن عبد الوهاب: فقيه، وقاض، وهو أخو الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولد في العيينة، ودرس على يد عددٍ من العلماء، عارض أخاه، وألف في الرد عليه كتاب: فصل الخطاب في الرد على محمد بن عبد الوهاب، عمل قاضيًا في حريملاء، ولكن عند سيطرة الدولة السعودية الأولى عليها ارتحل إلى سدير، وبقي بها، ولكن مع تمدد نفوذ الدولة السعودية الأولى في نجد غادر منطقة سدير في عام (١١٩٠هـ) إلى الدرعية، حيث فرض عليه الإمام عبد العزيز والشيخ محمد بن عبد الوهاب الإقامة فيها، وظل فيها حتى وفاته عام (١٢٠٨هـ)، انظر: ابن حميد، السحب الوابلة، ج٢، ص٦٧٩؛ البسام، علماء نجد، ج٢، ص٣٥٠-٣٥٦.

عريض داخل نجد حيث ستضطلع بإنتاج خطاب شرعي مضاد لخطاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مهمته تفنيد مبادئ دعوته، ومحاولة تقويضها، وكان الذي ساعد على تبلور هذا التيار حادثتان تاريخيتان، الحادثة الأولى وقعت في أثناء إقامة الشيخ محمد بالعيينة، وتتمثل في التطبيقات التي اتخذها لمبادئ دعوته بدعمٍ من أمير العيينة عثمان بن معمر، تجلى ذلك في هدم القبة المبنية على قبر زيد بن الخطاب، ورجم المرأة الزانية، وقطع الشجرة التي كان يتبرك بها بعض العامة، والحادثة الثانية والتي كانت نتيجة من نتائج الحادثة الأولى، وتتمثل في الرسالة العامة التي نشرها الشيخ سليمان بن سحيم، والتي استهدف بها علماء الأحساء، والبصرة، والحرمين الشريفين، يقول ابن غنام راصدًا هذه الحادثة: "وأعظمهم تشنيعًا وسعيًا بالشر إليه سليمان بن سحيم وأبوه محمد، فقد أتهم في ذلك وأنجد، وجدّ في التحريش عليه والتحريض، وهيأوا له أسباب الجريض، وأرسل بذلك إلى الأحساء والحرمين والبصرة" (ابن غنام، ١٤٣١هـ).

وعلى غرار المعارضة النجدية، واستجابةً لها، تشكلت المعارضة في الأحساء تجاه دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والتي كان من أقطابها الشيخ عبد الله بن فيروز، والشيخ ابن عفالق، والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف الإحسائي، ففيما يخص الشيخ عبد الله بن فيروز فلئن كانت المصادر التاريخية لا تشير إلى كونه معارضًا للشيخ محمد بن عبد الوهاب إلا أن فحص التراث الديني لتلكم الفترة يبرهن على اصطفافه مع فئة هؤلاء المعارضين، فقد كشفت إحدى الفتاوى المتعلقة بأحكام الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، الصادرة عنه وعن عالمين آخرين معاصرين له، هما: السفاريني والرزيني عن معارضته الشديدة للشيخ محمد بن عبد الوهاب، هذه الفتوى صدرت في عام (١١٦٥هـ/١٧٥٢م)، وناقشت عددًا من المسائل الفقهية مثل الجهر بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في المآذن، والجهر بالدعاء بعد الصلاة، والاضطجاع بعد سنة الفجر[(١)]، وكانت في جواباتها تستبطن ردًا على الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي قرر أن ما سوى الأذان في يوم الجمعة إنما هو بدعة، وأنه لم يشرع غيره، وأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الزيادة عليه[(٢)]، وعليه فإن أي صوت يرفع غير الأذان في موضع الأذان، سواءً كان آية قرآنية، أو صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أو غيرهما يعدّ بدعة من البدع التي يتعين إنكارها، (العثيمين، ١٩٨٦)، وخلافًا لآراء الشيخ محمد فقد قرّرت الفتوى أن "الصلاة بعد الأذان في المنارات ليس ببدعة"[(٣)]، معتبرة أن الجهر بذلك في المآذن إنما يأتي في سياق "التنويه بذكره، وإظهار الشعائر[(٤)]، وتذكير الجاهل، وتعظيم الجمعة التي من أفضل الأيام"[(٥)]، ويكمل الشيخ عبد الله بن فيروز وصنواه الآخران السفاريني والرزيني إقامة

(١) فتوى صادرة من ابن فيروز والسفاريني والرزيني بشأن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، نسخة منها لدى د. حمد العنقري، ولدى الباحث صورة منها.

(٢) سُئل الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن مسألة التذكير بالصلاة، والتي يُقصد بها رفع الصوت قبل الفجر بالتسبيح، والدعاء، أو قراءة آيات من القرآن الكريم، فأجاب بما نصه: "إنَّه بدعة" ثم أكمل الشيخ محمد جوابه، فقال عن السائل أنه "ذكر أنَّ عندنا مَن لا يعرف الجمعة إلاَّ به، وذكرت له أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم أعلم منَّا بمصالح أمته، وهو سنَّ الأذان، ونهى عن الزيادة، فلمَّا فتح الله لكم بابًا في اتباع نبيكم صلى الله عليه وسلم فلا تتثقلوا من قطع العادات في طاعة الله ورسوله، والسلام". انظر: مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة، مليار للاستثمار، بيروت، (٢٠١٠م)، ج١، ص٧٥٤.

(٣) الفتوى السابقة الصادرة من ابن فيروز والسفاريني والرزيني.

(٤) في الأصل: الشعاير.

(٥) الفتوى السابقة.

حججهم في هذه الفتوى، حيث بادروا بذكر فضائل هذا العمل، وما يترتب على الجهر بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، مقررين أن من بينها "مخالفة هؤلاء المارقين"(١) ولا ريب أن المقصود بذلك هم أتباع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهذا يحيل إلى أن الشيخ عبد الله بن فيروز كان معارضًا بشدة للشيخ محمد (ابن داوود، ٢٠٢٢)، وأنه ينظر إلى أتباعه بكونهم من المارقين(٢).

وإذا كانت معارضة الشيخ عبد الله بن فيروز خافتة، وغير ظاهرة في المصادر التاريخية، بحيث لم تظهر إلا في بعض شذرات التراث الديني الخاصة بتلكم الفترة، فإن معارضة ابن عفالق كانت أكثر وضوحًا إلى حد أن المصادر التاريخية نصّت عليها، فابن غنام عدّه من بين العلماء الذي أظهروا عداوة شديدة للشيخ محمد منذ أيام إقامته في العيينة، معتبرًا أنه من العلماء الذين "أغروا الخاص والعام، وخصوصًا السلاطين والحكام" (ابن غنام، ١٤١٩هـ)، وقد تجلت معارضة هذا الفقيه في رسالته الموسومة بـ"تهكم المقلدين في مدعي تجديد الدين"، خاطب فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب بأسلوب جدلي وتهكمي عبر طرح العديد من المسائل المتعلقة بكيفية الاستدلال، والتعامل مع علوم القرآن، وعلم الحديث، وأصول الفقه" (ابن عفالق، مخطوط تهكم المقلدين، ورقة: ٨٨-٩٨)، ولم تكن هذه الرسالة هي الوحيدة التي تركها الشيخ ابن عفالق بل ترك أيضًا رسالتين بعثهما إلى الأمير عثمان بن معمر(٣)، والتي يرجح أحد الباحثين أنها كُتبت بين عامي (١١٥٩-١١٦٣هـ)، أي بعد اندلاع الصراع العسكري بين الدرعية والرياض، وقبيل مقتل عثمان بن معمر (آل عبداللطيف، ١٤٢٧هـ)، مستنتجًا ذلك من النصوص الواردة فيهما، والتي جاء في أحدها مخاطبًا ابن معمر" ومن أخبره عن قتلى أهل الرياض أنهم في النار وقتلى تابعيه في الجنة"(٤)، والحال أن كتابات الشيخ ابن عفالق المعارضة للدعوة كانت متداولة، تعمّد معارضو الدعوة من طلبة العلم نشرها وإذاعتها، حيث ورد على لسان الشيخ محمد بن عبد الوهاب في إحدى رسائله قوله: "وكذلك لما أتاهم كتاب ابن عفالق الذي أرسله المويس لابن إسماعيل وقدم به عليكم العام، وقرأه على جماعتكم، يزعم فيه أن التوحيد دين ابن تيمية، وأنه لما أفتى به كفره العلماء، وقامت عليه القيامة" (ابن غنام، ١٤١٩هـ).

---

(١) الفتوى السابقة.

(٢) في المعجم اللفظي لخطاب المعارضة للشيخ محمد بن عبد الوهاب تكثر لفظة: المارقين، وما يماثلها مثل: الطغاة، والبغاة وغيرها. انظر على سبيل المثال: رسالة عبد العزيز الرزيني إلى أهل أثيثة، منشورة لدى البسام، أحمد بن عبد العزيز: الشيخ أحمد بن حمد الخليلي في كتابه وسقط القناع، مجلة الدرعية، السنة الثانية، العدد الخامس، محرم (١٤٢٠هـ) يناير (١٩٩٩م)، ص٣٢٥، والغرض من التوسل بهذه الألفاظ هو التثريب على الدعوة، وأتباعها، والتشنيع عليهم، وهذه الألفاظ ستكون ألفاظًا مركزية في خطاب الشيخ ابن فيروز، وطلابه المعارضين للدعوة، بل سينطوي خطابهم على مفاهيم وألفاظ أشدّ، وأنكى، كما سنرى في الصفحات القادمة للدراسة.

(٣) عثمان بن معمر: أمير العيينة، يعود نسبه إلى بني تميم، لجأ إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب أثناء ارتحاله من حريملاء، غير أنه لم يستمر هناك بسبب ضغط أمير الأحساء على ابن معمر، وخذلانه للشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي اضطر إلى الارتحال إلى الدرعية، وبعد ذلك عاد عثمان بن معمر مدافعًا عن الدعوة، ومواليًا للدولة السعودية الأولى، فقاد عددًا من سراياها في العارض والوشم، غير أن ولاءه كان محل شك كبير، ما أدى إلى اغتياله على يد بعض أتباع الدعوة. للمزيد من أخباره انظر: ابن بشر، عنوان المجد، ج١، ص٣٨، ٣٩، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦٠، ٦١.

(٤) رسالة الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عفالق إلى الأمير عثمان بن معمر، (مخطوط)، ورقة: ٢٦، ضمن مجموع ديني في العقائد، مكتبة الدولة، برلين بألمانيا.

أما عن الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف الإحسائي وعلى غرار سابقيه فرغم كونه يعد واحدًا من علماء الشيخ محمد إلا أنه أظهر عداءً شديدًا لدعوة الشيخ محمد بعيد استقراره في العيينة، ودعم الأمير عثمان بن معمر له (العثيمين، ١٩٨٦)، والواقع أن فحص بعض رسائل الشيخ محمد يمكن أن يشير إلى أنه كان حريصًا على شيخه ابن عبد اللطيف، وأنه سعى جاهدًا في إقناعه بمبادئ دعوته، إذ تكشف إحدى رسائل الشيخ مدى إجلاله الكبير له، وفي الوقت عينه مقدار عتَبَه البالغ بسبب اصطفافه مع المعارضين له، حيث خاطبه الشيخ محمد قائلًا: "ولما قيل إنك كتبت معهم وقع في الخاطر بعض الشيء لأن الله سبحانه نشر لك من الذكر الجميل، وأنزل في قلوب عباده لك من المحبة ما لم يؤته كثير من الناس... وأيضًا لما أعلم منك من محبة الله ورسوله وحسن الفهم واتباع الحق" (ابن غنام، ١٤١٩هـ)، ولا ريب أن الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف ما تزحزح عن موقفه قط، بل ازدادت معارضته إلى درجة تصنيفه رسالةً في الرد على الشيخ محمد، سمّاها: "سيف الجهاد لمدعي الاجتهاد"، (الحداد، ١٣٢٥هـ) عطفًا على كتابته عددًا من الرسائل الأخرى، مثل رسالته التي جاءت جوابًا على سؤال ورده من الكويت، يتعلق ببعض مسائل توحيد الأسماء والصفات، والتي وصف بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالجهل، والابتداع، والتكفير(١).

ولصلابة موقف الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف فقد يئس الشيخ محمد منه، وهو ما دعاه إلى أن يضعه في خانة واحدة مع كبار المعارضين له مثل ابن عفالق وغيره، ما يدلل على ذلك قوله في إحدى رسائله: "أما ابن عبد اللطيف وابن عفالق وابن مطلق فحشوا بالزبيل، أعني سبّابة التوحيد، واستحلال دم من صدق به أو أنكر الشرك" (الدرر السنية، ص٧٨).

من هنا نفهم كيفية انخراط الشيخ محمد بن فيروز، وانتظامه في سلك المعارضين للشيخ محمد بن عبد الوهاب، بوصفه تلميذًا نجيبًا لهؤلاء العلماء، ويكاد يكون راجحًا أن معارضته بدأت منذ أن كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب مقيمًا في العيينة، وقبيل انتقاله إلى الدرعية، ما يدعم هذا الرأي أن الشيخ ابن فيروز حتى وإن كان آنذاك في ريعان شبابه إلا أنه يُفهم من أحد المصادر أنه تصدر للتدريس والفتوى، وهو لم يزل غلامًا يافعًا، شيوخه أحياء(٢)، على أن هذا لا يتعارض مع الرأي القائل أن معارضته اشتد أوارها بغياب شيوخه ورحيلهم، إذ من المتوقع أن هؤلاء الشيوخ من أمثال: والده الشيخ عبد الله بن فيروز، والشيخ محمد بن عفالق، والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف الإحسائي عندما اشتبكوا مع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب جدلًا وتفنيدًا، فربما مثّل حضورهم الكثيف حجابًا له في الاضطلاع بهذه المهمة، والقيام بها، بحيث لم تشتد معارضته، ويسخر قلمه ولسانه في التصدي لها إلا بعد رحيلهم.

في هذه الأثناء كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته تمر بمنعرج تاريخي كبير، يتمثل في لجوئه إلى الدرعية، وتبني الإمام محمد بن سعود لدعوته، وحماية أتباعها، والذي تمخض عنه اندلاع الصراع العسكري المرير بين الرياض والدرعية الذي بدأ تدشينه عمليًا منذ عام (١١٥٩هـ/١٧٤٦م) والذي سيتمر لحوالي سبعة وعشرين عامًا،

---

(١) رسالة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف بشأن سؤال ورده من الكويت، (مخطوط)، مؤرخة في ٩ ربيع الأول عام (١١٧٤هـ)، ورقة: ٣، مكتبة الشيخ د. حسن آل حسين بالأحساء، ولدى الباحث صورة منها.

(٢) يمكن استحضار ما أورده أحد المصادر في هذا السياق، حين قال عن الشيخ ابن فيروز: "وهذا وتصدر وهو غلام، فيه على كل إمام". انظر: ابن سند، سبائك العسجد، ص٢٩١.

ومع مضي بضع سنين على هذا الصراع، وتوسع نفوذ الدرعية يومًا بعد يوم، وبالتالي رسوخ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقد تزامن مع هذه الأحداث وفاة الشيخ ابن عفالق المؤرخة بعام (١١٦٤هـ)، والتي جاءت مواكبة لنشاط سرايا الدولة السعودية العسكرية، وغاراتها المستمرة على بلدات العارض والوشم المتاخمة لها[(١)]، هذا العام كان الشيخ ابن فيروز قد بلغ حوالي ثلاثة وعشرين عامًا، بحيث من المتوقع أن تكون وفاة شيخه دفعته إلى الاشتباك مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب في هذا السجال الفكري الشرس باعتبار أن هذا الفعل يعد من مقتضيات الوفاء لشيخه، والسير في دربه، وإنجاز مهمته، فضلًا عن كونه ربما استشعر بوفاة شيخه أن ثمة مسؤولية تاريخية ألقيت على عاتقه دون غيره ليضطلع بمهمة تفنيد أفكار الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومبادئ دعوته، ولأجل كل ذلك فقد بادر بكتابة رسالته المتعلقة برؤيته حيال دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحيال مبادئها ورؤاها لا سيما في المجال العقدي، ولعل ما يبرهن على كونه كتبها في هذا التوقيت، أي بُعيد وفاة شيخه ابن عفالق أو ربما في السنين الأخيرة من حياته أن رسالته تمحورت حول صراع الدرعية مع الرياض، وغارات سراياها على العارض والوشم، مشيرًا في بدايتها إلى أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد "سار إلى البلدان يعاهد أهلها على قتال أهل الرياض" (ابن فيروز، مخطوط رسالة في الرد على مذهب ابن عبد الوهاب، ورقة: ٣).

لقد تضمنت رسائل هؤلاء العلماء الثلاثة العديد من الألفاظ والأوصاف المحملة بالدلالات السلبية الكبيرة بحق الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مثل: طاغوت، الجاهل المركب، المجدد لدين إبليس، أو بحق أتباعه مثل: المارقين – المذكورة سابقًا – أو الخوارج، وهو ما يعني أنها ستنتقل إلى الشيخ ابن فيروز، حيث ستكون قارةً وثابتةً في معجم خطابه الشرعي المناهض لمبادئ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب[(٢)]، الأمر الذي يحيل إلى تأثره البالغ

---

(١) أشارت المصادر النجدية إلى العمل العسكري الدؤوب والمتواصل للدرعية خلال هذه الفترة، فقد أشارت في عام (١١٦١هـ/١٧٤٨م) إلى وقعة الخريزة، وخبرها أن الأمير عبد العزيز سار بأهل الدرعية وضرما ومعه عثمان بن معمر بأهل العيينة وحريملاء، حيث التقيا بأهل الرياض، وقتل من الجانبين عدد من الطرفين (١)، وفي العام ذاته حدثت معركة البطين قرب ثرمداء، حيث سار عبد العزيز بأهالي الدرعية وضرما، وكذلك عثمان بن معمر بأهالي العيينة وحريملاء، فاقتتلوا مع أهل ثرمداء، فقتلوا سبعين رجلًا منهم (١)، ويورد ابن غنام في هذا السياق خبرًا مهمًا مفاده أن الأمير عبد العزيز أشار على عثمان – ولكون هذا الأخير قائد الجميع – "بدخول البلد والمعاجلة فأبى عثمان من ذلك، وكانت مكيدة ومخاتلة فعند ذلك، استطال عليه عبد العزيز بالكلام ووبخه، ولامه غاية الملام"(١)، ويضيف ابن غنام أن الأمير عبد العزيز "نهض مريدًا دخول البلاد من غير توقف ولا استرداد، وأمر بذلك جميع أتباعه، فبادروا لامتثال أمره، واتباعه، ولكن كان الذي معه ذلك اليوم نزر يسير ومع عثمان الجم الغفير"(١)، ويكشف هذا الخبر المهم حضور شخصية الأمير عبد العزيز، ورؤيته المستقلة، ومقدرته العسكرية على اقتناص النصر إذا حان، غير أنه لم يشأ أن يهاجم البلدة بالعديد القليل الذي معه، لذلك آثر الرجوع إلى الدرعية، والاكتفاء بالنصر الذي تحقق(١). أما في سنة (١١٦٣هـ/١٧٥٠م) قاد الأمير عبد العزيز جنود الدولة السعودية الأولى إلى نواحي ثرمداء التي اجتمع مع أهلها أهالي وثيثة ومرات. تاريخ ابن غنام، ج٢، ص٦٨٣؛ ابن بشر، عنوان المجلد، ج١، ص٥٧، ٥٨. انظر: تاريخ ابن غنام، ج٢، ص٦٨٣، ٦٨٤، ٦٨٨، ٦٨٩؛ ابن بشر، عنوان المجلد، ج١، ص٥٨، ٦١، ٦٢.

(٢) استخدم الشيخ محمد بن فيروز وعلى غرار شيوخه هذه المفاهيم والنعوت الجارحة أو ما يماثلها ويشابهها في مواضع كثيرة بحق الشيخ محمد، فقد وصفه بـ: "طاغية العارض" و"مبتدع العارض" و"الجاهل المركب" و"الطاغية المرتاب"، و"المحيي ما ندرس من أباطيل مسيلمة الكذاب"، انظر: ابن فيروز، محمد بن عبد الله: الرسالة المرضية في الرد على الوهابية، بومباي بالهند، (١٣٠٦هـ)، ص٢؛ ابن فيروز، رسالة في الرد على مذهب ابن عبد الوهاب، ورقة: ٤؛ ابن داوود، الصواعق والرعود، تقريظ ابن فيروز ص٢٧؛

بشيوخه، خاصة والده وشيخه ابن عفالق، وعليه فإن الخلاصة المترتبة على كل ما سبق أن من أهم أسباب معارضة الشيخ محمد بن فيروز لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو تأثره بشيوخه، ومضيه في الطريق الذي سلكوه ضد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ربما يكون ذلك وفاءً لهؤلاء الشيوخ، واستشعاره أنه المسؤول الأول في حمل وأداء ما تركوه له بعد رحيلهم من موقف فكري شرس مناهض لهذه الدعوة، أو ربما يكون اقتناعًا ذاتيًا بسلامة موقفهم الشرعي وصوابه، ولا ريب أن اقتناعه الذاتي مهما كان تجرده إلا أنه لن يلغي البنية النفسية للشيخ ابن فيروز، والتي تكوّنت عبر رصيد متراكم ضخم صنعته أحداث غزيرة ومتطاولة تتعلق بتنشئته التربوية، ومحيطه الاجتماعي، هذه البنية النفسية من شأنها أن تقوده إلى تبنّي موقف أبيه وشيوخه، وتقف حائلًا عن التنكر لهذا الموقف، أو التغافل عنه، لا سيما أن الأمر واقع بين ثنائية لا محيد عنها، فإما أن يكون مع هؤلاء الشيوخ مطلقًا، أو أن يكون مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب ليكون كضرورة منطقية ضد شيوخه، ناسفًا بذلك كل ما قرروه، وبذلوه في سبيل دحض هذه الدعوة.

العامل الجهوي

والمقصود به أن ثمة تعصبًا من الشيخ ابن فيروز تجاه منطقة نجد، بوصفها منطقة قاحلة لا يمكن أن تضطلع بفكر أو دعوة إصلاحية، وهذا البعد تجلى في العديد من نصوص الشيخ ابن فيروز سواءً كانت نثرًا أم شعرًا، ففي سياق تقريظه لكتاب: الصواعق والرعود، ماثل ابن فيروز بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومسيلمة الكذاب، إذ وصفه بأنه "الطاغية المرتاب المحيي ما اندرس من أباطيل مسيلمة الكذاب كما أشار إلى أن الشيخ محمد كان مشغولًا بأخبار المتنبئين وأنه "أضمر ذلك في نفسه، وتحير في كيفية إبرازه""، (ابن داود، مخطوط) وإذا كانت هذه العبارات لا تبين بجلاء موقف الشيخ ابن فيروز من منطقة نجد، فإنه يتجلى بصراحة في العديد من أبياته الشعرية، مثل قوله في مطلع تائيته: (تائية ابن فيروز، ورقة١).

سـلام فـراق لا سـلام تحيـة ... علـى ساكنـي نجـد وأرض اليمامـة

وقوله أيضًا:

وهـل شـرفت نجـد علـى أرض يثـرب ... وهـل أهلهـا فـاقوا علـى أهـل مكـة

وبيته الآخر المتضمن سخريةً لاذعة من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

ومـن أيـن هـذا العلـم جـاء إليـكم ... أمـن أرض نجـد بان أم رأس خيمـةِ

ولكي يثبت الشيخ ابن فيروز بطلان دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، يستحضر في قصيدته بعض الأحاديث المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم التي تحيل دلالاتها إلى رؤية سلبية تجاه منطقة نجد، حيث قال:

أمـا ذمّ نجـدًا خـيرة الرسـل وأهلهـا ... ولا قـال فيهـا إنهـا دار هجـرة

أمـا قـال لمـا سـئل في دعائـه ... أيا رب فـارحم أهـل بطحـا وطيبـة

وبارك لنـا في شـامنا ويمانـنـا ... ولا قـال في نجـدٍ سـوى هـو سـاكت

فلمـا ألحـوا بالسـؤال أجـابهم ... ألا إن نجـدًا دار مكـر وحيلـة

كما استعمل ما يشابهها في حق أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب مثل: "طغاة نجد"، و"أهل الضلال من أهل نجد". انظر: ابن فيروز، الرسالة المرضية، ص٤؛ العتيقي، صالح بن سيف: مجموع العتيقي، (مخطوط)، ورقة: ١٤، مكتبة د. الشيخ حسن آل حسين بالأحساء، ولدى الباحث نسخة منه.

ودار بهـا الشـيطان يخـرج قرنـه ... ودار افتتـان وارتجـاف ومحنـة

ومن الواضح هنا أن الشيخ ابن فيروز يوظف أحد الأحاديث النبوية الذي جاء فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا في شَأْمِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا في يَمَنِنَا قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، وفي نَجْدِنَا؟ قالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا في شَأْمِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا في يَمَنِنَا قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، وفي نَجْدِنَا؟ فأظُنُّهُ قالَ في الثَّالِثَةِ: هُنَاكَ الزَّلَازِلُ والفِتَنُ، وبهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ"، (صحيح البخاري) وإمعانًا من الشيخ ابن فيروز في التأكيد على صحة هذا الحديث يكمل أبياته السابقة، فيقول: (تائية ابن فيروز، ورقة٦).

فهـذا حـديث في البخـاري ومسـلم ... صـحيح رواه الترمـذي وابـن ماجـة

فـاعتبروا في ذي النصـائح وانتهـوا ... فيغفـر لكـم مـا قـد سـلف مـن خطيئـة

إن الشيخ ابن فيروز عند توظيفه لهذا النوع من الأحاديث والآثار النبوية بقدر ما تخفي تعصبه ضد منطقة نجد(١)، فإنها من جهة أخرى تبيّن تأثره البالغ بأطروحات شيوخه في تفنيد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ذلك أن هذه الأفكار أدلى بها شيخه ابن عفالق، وكرس لها في ردوده على الشيخ محمد، حيث استحضر في إحدى رسائله إلى الأمير عثمان بن معمر معنى الأثر الخاص بقرن الشيطان، معتبرًا أن أهل اليمامة هم المقصودون به، (ابن عفالق، مخطوط) بل أكثر من ذلك إذ استحضر الشيخ ابن عفالق في أحد أجوبته على هذا الأمير هذا الحديث الذي استدعاه ابن فيروز في أبياته(٢).

---

(١) من الجدير ذكره أن توظيف هذه النصوص في إدانة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أدت إلى توقف العديد من علماء الدعوة للرد عليها، ومحاولة تفنيدها لاحقًا فالشيخ عبد الرحمن بن حسن حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب قرر أن الذم والمدح يقع على الحال لا على المحل، فقال حيال هذا الحديث" الذم انما يقع في الحقيقة على الحال لا على المحل، والأحاديث التي وردت في ذم نجد كقوله: (اللهم بارك لنا في يمننا، اللهم بارك لنا في شامنا، قالوا: وفي نجدنا، قال: هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان. قيل انه أراد نجد العراق لأن في بعض ألفاظه ذكر المشرق، والعراق شرقي المدينة، والواقع يشهد له لا نجد الحجاز، ذكره العلماء في شرح هذا الحديث، فقد جرى في العراق من الملاحم والفتن ما لم يجر في نجد الحجاز، يعرف ذلك من له اطلاع على السير والتاريخ كخروج الخوارج بها الذين قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكمقتل الحسين، وفتنة ابن الأشعث، وفتنة المختار، وقد ادعى النبوة، وقتال بني أمية لمصعب بن الزبير وقتله، وما جرى في ولاية الحجاج بن يوسف من القتال وسفك الدماء وغير ذلك مما يطول عده. وعلى كل حال فالذم يكون في حال دون حال، ووقت دون وقت، بحسب حال الساكن، لأن الذم إنما يكون للحال دون المحل، وإن كانت الأماكن تتفاضل، وقد تقع المداولة فيها فإن الله يداول بين خلقه حتى في البقاع، فمحل معصية في زمن قد يكون محل طاعة في زمن آخر". ويضيف الشيخ عبد الرحمن فيقول: "فلو ذم نجد بمسيلمة بعد زواله، وزوال من يصدقه، لذم اليمن بخروج الأسود العنسي ودعواه النبوة، وما ضر المدينة سكنى اليهود فيها، وقد صارت مهاجر رسول الله وأصحابه، ومعقل الإسلام، وما ذمت مكة بتكذيب أهلها الرسول صلى الله عليه وسلم، وشدة عداوتهم له، بل هي أحب أرض الله إليه". انظر: الدرر السنية، ج١١، ص١٨٠-١٨٢، وبهذا المعنى والحجة التي طرحها الشيخ عبد الرحمن أورد الشيخ سليمان بن سحمان ما يماثلها في أحد ردوده. انظر: ابن سحمان، سليمان: الأسنة الحداد في رد شبهات علوي الحداد، مطابع الرياض، ط٢، (١٣٧٦هـ)، ص٨٤.

(٢) جواب الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عفالق إلى الأمير عثمان بن معمر، ورقة: ١٥، مكتبة جامعة برلين، ألمانيا، ولدى الباحث نسخة منها.

ثالثًا: التصوف

من الناحية التاريخية يعد التصوف، وعلمائه المنتسبين له من أكثر المذاهب والاتجاهات الدينية التي ناوأت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وحاولت تفنيد مبادئها، ذلك أن تتبع سيرة أكثر العلماء الذين عاصروا الشيخ محمد أو جاءوا بعده بقليل، وردوا عليه، وعارضوه سواءً في داخل الجزيرة العربية أم خارجها يمكن أن يرى أثر التصوف ظاهرًا على مسلك هؤلاء العلماء الديني، ففي الحجاز الفقيه الشافعي أحمد زيني دحلان، وفي المخلاف السليماني أحمد بن إدريس، وفي حضرموت علوي الحداد، وفي العراق داود بن جرجيس وفي بلاد المغرب العربي يُفهم من أحد الباحثين أن الذين اعتنوا بالرد على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وحاولوا تفنيد مبادئها، هم من أتباع المذهب المالكي، من ذوي الاتجاه الصوفي والمسلك الطرُقي (الرديسي، ٢٠٠٨م)، والحال أن هذا الموقف الصلب من لدن العلماء المنتسبين إلى التصوف يأتي كردّ فعل على الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي كان ينظر إلى أن التصوف بوصفه المسلك الديني الأبرز الذي قاد إلى انتشار ثقافة تقديس الأولياء، والتبرك بالمزارات، والأضرحة، وبالتالي فقد كان جوهر دعوة الشيخ محمد يحمل عداءً شديدًا، وتثريبًا واسعًا على هذا المسلك، ولكي تتضح هذه الفكرة، ولا تكون مرسلة، يتعين علينا في هذا السياق استحضار آراء الشيخ محمد حيالها، والتي ترتبط ارتباطًا مباشرًا بمسألة التوسل، هذه المسألة أفاض في تناولها الشيخ محمد، حيث ذهب إلى أن دعوة الأولياء والصالحين لأجل الشفاعة، أو القربة من الله هو شركُ أكبر، مخرج عن الملة الإسلامية، معتبرًا أن هذا هو الكفر بعينه الذي وقع فيه المشركون زمن النبي صلى الله عليه وسلم (مجموعة التوحيد، ١٤١٩هـ)، ولا يكتفي الشيخ محمد بتقويض فكرة تقديس الأولياء، أو التبرك بأضرحتهم، والتي تعد مسألة مركزية عند الصوفية، بل يتناول رموزهم التاريخيين، وأقطابهم وأعلامهم الكبار مثل: ابن عربي، وابن الفارض حيث يستحضر في إحدى رسائله تكفير بعض علماء المسلمين لهما، بما يفهم تأييده لهم، حيث يقول في هذا السياق "وقد ذكر أهل العلم أن ابن عربي من أئمة مذهب الاتحادية، وهم أغلظ كفرًا من اليهود والنصارى فكل من لم يدخل دين محمد صلى الله عليه وسلم ويتبرأ من دين الاتحادية، فهو كافر، بريء من الإسلام، ولا تصح الصلاة خلفه، ولا تقبل شهادته" (ابن غنام، ١٤١٩هـ).

ومع تثريب الشيخ محمد بن عبد الوهاب على رموز الصوفية، وأقطابها، أشار بعض خصوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى أن ذلك الأمر رافقه إحراق الشيخ محمد لبعض كتب المتصوفة (ابن سحيم، ص٣٤٥)، مثل: دلائل الخيرات (الجزولي، ١٤١١هـ)، ورياض الرياحين (اليافعي، ص٤٥)، على أن ابن غنام في تاريخه نفى إحراق هذين الكتابين، (ابن غنام، مخطوط) عطفًا على أن الشيخ محمد نفى في إحدى رسالته إحراق كتاب دلائل الخيرات تحديدًا (ابن غنام، مخطوط)، والحال أن أحد الباحثين عندما ناقش هذه الحادثة توقف عن القطع بحقيقتها، فلم ينفها مطلقًا (العثيمين، ٤٦)، على أن ما يؤيد وقوع إحراق مثل هذه الكتب هو الصدى الواسع الذي لم يقتصر على منطقة نجد، بل تعداه ليشمل الجزيرة العربية بأسرها، الأمر الذي يفسر ما ورد في أحد أبيات ابن الأمير الصنعاني في اليمن، حين أشاد بفعل الشيخ محمد قائلًا: (الصنعاني، ١٣٨٤هـ).

وحـــرّق عمـــدًا للـــدلائل دفـــترًا   أصـاب ففيهـــا مـــا يجـــل عـــن العـــدّ

والملاحظ هنا أن هذا البيت ورد عند ابن غنام وابن بشر، وأشار كلاهما إليه، من دون أن ينفيا هذا الخبر، أو يعلقا عليه (ابن غنام؛ ابن بشير، ١٤١٩هـ)، يضاف إلى ذلك أن الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب أقرّ وجود إحراق مثل هذا النوع من الكتب، حين قال في إحدى رسائله: "ولا نأمر بإتلاف شيء من

المؤلفات أصلًا، إلا ما اشتمل على ما يوقع الناس في الشرك كروض الرياحين، وما يحصل بسببه من خلل في العقائد" (ابن عبدالوهاب، ١٤٣١هـ).

ورغم أن هذا النص أتى بعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بأكثر من أربعة عشر عامًا، إلا أنه يُفهم منه أن إحراق الكتب المغرقة في التصوف كان تقليدًا موروثًا عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، إذ من المستبعد أن يكون هذا الفعل لم يحدث إلا بعد وفاته، لا سيما وأن أتباعه تلكم الفترة كانوا يتوخون الاحتذاء بفعله، والاقتداء بسيرته.

وإذا كان التصوف من حيث موقفه من الدعوة، وموقف الدعوة منه بات جليًا وواضحًا، فإن هذه الخلاصة تبدو مهمة للغاية، لأنها ستمنحنا فهمًا نفسر من خلاله أثر التصوف من حيث كونه عاملًا مذهبيًا أسهم إسهامًا كبيرًا في دفع الشيخ ابن فيروز إلى معارضة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، لكن قبل ذلك وعند هذه النقطة يثور سؤال مهم، وهو هل كان ابن فيروز يسلك مسالك المتصوفة، أو بالأحرى هل له ميول صوفية؟

والحال أن الإجابة على هذا السؤال تقتضي في المقام الأول العودة إلى الأحساء مسقط رأس الشيخ ابن فيروز، وفحص البيئة العلمية فيها، لأن ذلك من شأنه أن يعطينا كيفية تسرب أفكار التصوف إلى الشيخ ابن فيروز، وفي هذا الصدد يمكن القول إن الناظر إلى البيئة العلمية بالأحساء سيلحظ أن التصوف كان واحدًا من أشكال التدين الراسخة في هذه المنطقة، حيث يذهب أحد الباحثين إلى أن الأحساء كان من بين علمائها عددُ من المتصوفة، أو على الأقل ممن يميل إلى التصوف، مبرهنًا على ذلك بكونها خلال تلك الفترة كانت مقصدًا لبعض العلماء المتصوفة (العصيمي، ص١٧٩)، ويشير أحد المصادر إلى أن الشيخ عبد الله بن محمد الكردي وأخاه الشيخ محمود قدما من العراق، واستقرا في الأحساء، حيث سكنا في مدينة المبرز (آل عبدالقادر، ١٩٩٩).

ولأن التصوف قارًا في الأحساء بين علمائها وطلبة العلم، سواءً المستقرين فيها، أو الوافدين عليها، فمن المؤكد أن الشيخ ابن فيروز كان ينزع إلى هذا المنزع، ما يبرهن على ذلك وصف تلميذه العتيقي له حين قال عنه: "قائم بأعباء الشريعة، ذو مشرب من منهج الصوفية" (العتيقي، مخطوط ترجمة ابن فيروز، ورقة: ١)، وإذا كان هذا النص يؤشر صراحة على منزع ابن فيروز الصوفي، فإن الفاحص لبعض أبياته سيلحظ نفَسَه الصوفي، يبرز ذلك من خلال أبياته التي نظمها في إحدى إجازاته، حين توسل بالنبي صلى الله عليه وسلم قائلًا: (العامري، مخطوط).

علـــي نـــورٌ لم أزل بـــه أهتـــدي حتـــى اتصـــلت بالنـــبي أحمـــد
بـــه توســـلت إلى الـــرب العلـــي رب بأن أســـكن أعـــلا المنـــزل

فضلًا عن إشارته في المنظومة عينها إلى عبد القادر الجيلاني أحد أقطاب الصوفية، ورموزها التاريخيين[1]، وهكذا يتضح أن مسلك الشيخ ابن فيروز المتصوف، كان واحدًا من العوامل التي جعلته يبدي معارضته الشديدة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته، على أن هذه العوامل لئن كانت تتسم بالتعدد، فإن معارضته اتسمت هي الأخرى بالتعدد، من حيث كونها اتخذت أشكالًا مختلفة، وسلكت مسارات متعددة، وهذا ما ستتم مقاربته في المبحث التالي.

(١) المصدر السابق، ورقة: ٨.

المبحث الثاني: مسارات معارضة الشيخ محمد بن فيروز

سلكت معارضة الشيخ ابن فيروز للشيخ محمد بن عبد الوهاب مسارات متعددة، أحدها يمكن تسميته بأنه مسار جدلي وشرعي في الوقت نفسه، يعتمد على كتابة الرسائل، ومناقشة مبادئ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومحاولة إظهار تهافتها، في حين أن المسار الثاني فيمكن وصفه بأنه مسار تعليمي، حيث عمد ابن فيروز إلى تكوين جيل من طلبة العلم الشرعيين المعارضين للشيخ محمد بن عبد الوهاب، والمناهضين لدعوته، أما المسار الثالث فهو مسار يندرج ضمن الجانب السياسي، عن طريق إقامة شبكة علاقات واسعة مع السياسيين المعارضين للدولة السعودية الأولى، واستعداء السلطات السياسية القائمة آنذاك، ولكي يتم استيفاء أشكال وصور معارضة ابن فيروز ضمن هذه المسارات على نحو عميق، ومركّز، فإنه يمكن مقاربتها على النحو التالي:

أولًا: المسار الجدلي والشرعي

يعتني هذا المسار بالتأريخ للجدل الشرعي الذي خاضه الشيخ ابن فيروز مع غريمه الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ويهتم بالمسائل الفكرية، والتنظيرات الدينية التي أبدى فيها الشيخ ابن فيروز اعتراضه من خلالها على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والواقع أن فحص رسائل وردود ابن فيروز على الشيخ محمد سيلحظ أنها انطلقت في الوقت الذي كانت الدولة السعودية الأولى تضطلع بمهمة توحيد منطقة نجد وتزداد قوة مع الوقت، ومن المؤكد أن ابن فيروز مع اتساع رقعة الدولة السعودية الأولى، وتبني مجتمعاتها لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان يزداد تأليبًا وقدحًا في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وذمًا في الدولة السعودية الأولى، على أنه يبدو من العسير الإتيان بضبط دقيق لتاريخ معارضته ونشاطه العلمي المعارض للدعوة، باعتبار أن المصادر التاريخية لم تعتن بتسجيلها، وذلك على خلفية منهجيتها العتيقة المتمحورة برصد أخبار الأمراء، وميادين الحروب، والتغيرات السياسية دون النظر إلى تتبع تفاصيل الجانب العلمي من ذلك الواقع التاريخي، هذا من زاوية ومن زاوية ثانية فإن المصادر التاريخية لتلكم الحقبة والتي اعتنت برصد أخبار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والدولة السعودية الأولى مثل: تاريخ ابن غنام، وتاريخ ابن بشر، وغيرهما كانت مجافية لأخبار معارضيها، وما يبثونه من رسائل لكونها تمثل وجهة نظر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والدولة السعودية الأولى، وتفاديًا لهذا الانقطاع شبه الكلي الخاص بالنشاط العلمي المعارض لابن فيروز، يمكن النظر إلى مضامين ما كتبه من رسائل، ومحاولة استنطاق دلالاتها الزمنية، ومواءمتها مع سياقها التاريخي، لأن ذلك من شأنه أن يساعد في تقديم مقاربة تؤرخ لرسائله وردوده.

وفي سبيل ذلك سنلاحظ أنه في معارضته للدعوة لم يترك سوى رسالتين اثنتين، يضاف إليهما تقريظ كتبه على كتاب تلميذه ابن داوود الزبيري المسمى: الصواعق والرعود، فضلًا عن بعض الأشعار المثربة على الدعوة، هاتان الرسالتان، هما:

الرسالة الأولى: رسالة في الرد على مذهب ابن عبد الوهاب، وهذه الرسالة ربما تكون من أولى رسائل الشيخ ابن فيروز التي كتبها، شارحًا فيها معارضته للدعوة، إذ إن مضامينها تفيد أنها جاءت في سياق الصراع العسكري الذي اندلع منذ عام (١١٥٩هـ/١٧٤٦م) بين الدرعية والرياض، حيث اصطفّ ابن فيروز فيه مع أمير الرياض دهام بن دواس الذي يعتبر الغريم التقليدي لأئمة الدولة السعودية الأولى في ذلك الوقت، ولعل ما يبرهن على أن صدور هذه الرسالة جاء محايثًا لهذا السياق، ولذلك الصراع بين البلدتين قول ابن فيروز في مطلعها عن الشيخ محمد: "سار إلى أهل البلدان يعاهد أهلها على قتال أهل الرياض" (ابن فيروز، مخطوط).

الرسالة الثانية: عنوانها: الرسالة المرضية في الرد على الوهابية"، وهذه الرسالة من المرجح أنه كتبها بعد ارتحاله إلى العراق، ولعل ما يدعم هذا الرأي قوله في مطلعها: "سأل مني الدرة الفطن، قطب دائرة الأمراء كيخيا باشا(١) زاد الله في رفع قدره، ويسر له عظيم نصره" (ابن فيروز، الرسالة المرضية)، ويتضح من هذا النص أن هذه الرسالة جاءت جوابًا على سؤال كيخيا العراق، حيث من المتوقع أن يكون هذا السؤال ورده بعد إقامته في البصرة، واحتكاكه بولاتها، ورجالاتها، وأصحاب النفوذ فيها، عطفًا على أن هذا السؤال ربما جاء مواكبًا لتعاظم قوة الدولة السعودية الأولى، وضمها لمنطقة الأحساء، ووصول سراياها تخوم العراق.

هاتان الرسالتان هما ما بقي من تراث ابن فيروز الخاص بالرد على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، إضافة إلى تقريظه الذي كتبه في مقدمة كتاب تلميذه ابن داوود الزبيري، المسمى الصواعق والرعود، وهذا التقريظ كتبه وهو في الزبارة بقطر، بدليل أنه ختم تقريظه بقوله: "أملاه الفقير إلى مولاه العلي محمد بن عبد الله بن فيروز الحنبلي، في محروسة الزبارة، صانها الله عن كل من قصدها بأذى، وقطع دابره، في اليوم الثامن عشر من شهر صفر الخير من هجرته صلى الله عليه وسلم سنة (١٢١٠هـ)" (ابن داود، ٢٠٢٢).

إن هذا الاستعراض السابق لتراث ابن فيروز ضد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو في جوهره استعراض أفقي، ربما يبدو مهمًا من حيث كونه يضع هذا التراث في سياق تاريخي جلي، بحيث يوضح تسلسل الصراع الفكري وتطوره بين ابن فيروز وغريمه الشيخ محمد، على أن ذلك لا يغني مطلقًا عن الولوج رأسيًا عبر النظر في أفكار ابن فيروز، التي نطقت بها نصوصه، لا سيما رسالته المكتوب على طرتها: رسالة في الرد على مذهب ابن عبد الوهاب، والتي تواكب احتدام الصراع بين الدرعية والرياض، الدرعية بوصفها عاصمة الدولة السعودية الأولى، والمعقل المنيع الذي لجأ إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب واحتمى به، والرياض بوصفها إبان هذه الفترة بؤرة المعارضة سواءً بشقها السياسي، ويمثله أميرها دهام بن دواس(٢)، أو بشقها الديني، ويمثله العلامة الحنبلي سليمان بن سحيم.

ولأن ابن فيروز يشكل واحدًا من رموز المعارضة الدينية لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فقد أفضى ذلك إلى الانحياز الكامل إلى أهل الرياض، بحيث بدت رسالته هذه تجليًا من تجليات هذا الانحياز، مثريًا فيها على

---

(١) كيخيا باشا: يقصد علي باشا الذي حارب السعوديين بأمر الباب العالي منذ نهاية العقد الأول من القرن الثالث عشر الهجري، وأعوام العقد الذي يليه. وصفه أحد المؤرخين المعاصرين له بالكرم والسخاء. انظر أخباره لدى، ابن سند، عثمان: مختصر مطالع السعود، اختصره: أمين الحلواني، اعتنى به: سليمان الخراشي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، (١٤٤٠هـ/٢٠١٩)، ص١١٦-١٥٦.

(٢) دهام بن دواس: أمير الرياض، أصله من منفوحة غير أنه تأمر في الرياض عندما أعلن وصايته على ابن أخته الصغير الذي كانت في أسلافه آل زرعة إمارة هذه المدينة، وعند قيام الدولة السعودية الأولى دخل دهام بن دواس في صراع مرير معها، ولم ينته إلا بتمكن الإمام عبد العزيز من ضم الرياض، وتقويض إمارة دهام عام (١١٨٧هـ/١٧٧٤م)، لمعرفة نبذة عن كيفية توليه الإمارة في الرياض. انظر: عساكر، راشد: منفوحة في عهد الدولة السعودية الأولى والثانية، دار درر التاج للنشر والتوزيع، ص١٠٨. الرياض، ط١، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م)، ص١٠٨. ولمعرفة كيفية ضم الإمام عبد العزيز الرياض عام ١١٨٧هـ/١٧٧٤م انظر: ابن بشر، عنوان المجد، ج١، ص١١٩-١٢١، ولأخذ فكرة عن الصراع العسكري المرير بين دهام بن دواس والدولة السعودية الأولى، والذي استمر حوالي ٢٧ عامًا، انظر: عبد الرحيم، عبد الرحمن: الدولة السعودية الأولى، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ط٥، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص٦٥-٦٩.

الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه، يقول ابن فيروز في مستهل رسالته ما لفظه: "فاعلموا هدانا الله وإياكم أنه تقرر وظهر عند الخاص والعام أن ابن عبد الوهاب كفر جملة من المسلمين منهم أهل الرياض وغيرهم، وأباح دماءهم، وأموالهم، وسار إلى البلدان يعاهد أهلها على قتال أهل الرياض، وغيرهم، وأباح دماءهم، وأموالهم، وجعلهم كالمشركين" (ابن فيروز، مخطوط رسالة في الرد على مذهب ابن عبد الوهاب، ورقة: ٣)، وإذا كان هذا النص يؤكد فيه ابن فيروز تكفير الشيخ محمد بن عبد الوهاب لخصومه في الرياض من المعارضين لدعوته، وإباحة قتالهم، فإن هذا القول جاء على ما يبدو ردًا على بعض نصوص الشيخ محمد، التي قارن فيها بين خصومه الرافضين لدعوته والمشركين الأوائل، فالشيخ يذهب إلى أن المشركين الأوائل "مقرون، يشهدون أن الله هو الخالق الرازق، وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا الله، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السماوات السبع، ومن فيهن، والأرضين ومن فيهن، كلهم عبيده، وتحت تصرفه وقهره" (مجموعة التوحيد، ص١٠١)، وبلا ريب فإن غرض الشيخ محمد من هذا الإقرار ترسيخ فكرة أن إيمان هؤلاء المشركين بربوبية الله لم ينف عنهم أن يكونوا مشركين، حيث يقول "فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا، وأنه لم يدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة، الذي يسميه المشركين في زماننا الاعتقاد، كما كانوا يدعون الله سبحانه ليلًا ونهارًا" (مجموعة التوحيد، ص١٠٢).

ليس هذا فحسب، بل يذهب الشيخ محمد في أحد نصوصه إلى أن المشركين الأوائل أخف شركًا ممن سماهم مشركي زمانه، حيث جاء في القاعدة الرابعة من قواعده العقدية ما نصه: "أن مشركي زماننا أعظم شركًا من الأولين لأن الأولين يخلصون لله في الشدة، ويشركون في الرخاء، ومشركي زماننا شركهم دائم في الرخاء والشدة" (مجموعة التوحيد، ص١٥٥)، وبسبب فكرة المماثلة أو المقارنة التي طرحها الشيخ محمد بين من سماهم مشركي زمنه وبين المشركين الأوائل اتخذ ابن فيروز من هذه الفكرة نقطة مركزية في بناء منهجيته التي صاغ بها رسالته في الرد على غريمه، باذلًا قصارى جهده في تفنيدها، ودحضها، ومحاولة إيضاح تهافتها، أو بمعنى آخر لئن بدا أن الشيخ محمد يروم إيجاد تطابق تام في الممارسات الدينية بين من سماهم مشركي زمنه والمشركين الأوائل، للوصول إلى خلاصة مفادها جواز تكفيرهم، وقتلهم، فإن ابن فيروز في تأصيله الشرعي يروم توسيع الفجوة، وإبراز الاختلافات في الممارسات الدينية بين الطرفين، للوصول إلى خلاصة مغايرة تمامًا عن خلاصة الشيخ محمد، تقضي بإثبات إسلامهم، وحُرمة تكفيرهم، وحرمة دمائهم، وأموالهم.

ولكي تتضح مقاربة ابن فيروز حيال هذه المسألة، يمكن أن نلخصها في النقاط التالية:

١- يقرر ابن فيروز أن المشركين الأوائل ينكرون كلمة التوحيد، ولا يقولون بها، (ابن فيروز، مخطوط) مستدلًا على ذلك بقوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ}، (الصافات، ٣٥) وقوله تعالى: {وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّاب، أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَاب} (ص، ٤،٥)، وقوله: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ}، (الزمر، ٤٥) بينما يقر من كفّرهم الشيخ محمد – أو اعتبرهم مثل المشركين الأوائل – بلا إله إلا الله إقرارًا تامًا، وعليه فقد رأى ابن فيروز أنهم تميزوا "عن المشركين بذلك، وبطل قوله المكفر لهم من هذا الوجه"، على أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب لا يسلّم لابن فيروز بهذا القول، الأمر الذي أدركه هذا الأخير وأشار إليه، حيث قال عن الشيخ محمد وأتباعه إنهم "يقولون إن المشركين والكفار يقولون لا إله إلا الله"، غير أن ابن فيروز ينظر إلى أن إقرار الشيخ محمد بهذا القول ليس إلا ضربًا من ضروب التشبيه على الناس، بوصفه كان يروم المماثلة بين المشركين الأوائل ومن سماهم مشركي

زمنه، ليكون ذلك ذريعة في تكفيرهم، وإنزالهم منزلة واحدة أو في مستوى واحد من الضلال والانحراف، يقول ابن فيروز في هذه المسألة بأسلوب حاد وغليظ: "ويشبّه على العوام، ضعفاء العقول الذين ليس لهم اطلاع على العلم، فويل لهم من الوقوف بين يدي الله، وويل للعوام من الجهل، ويحه هلا بين حقيقة الأمر! لكن كل ذلك إرادة تصديق قوله الذي أراد به الرئاسة والشهرة، ولا يبالي بعد ذلك خطأ أم صواب" (ابن فيروز، مخطوط في الرد على مذهب ابن عبد الوهاب، ورقة: ٤).

٢- يؤكد ابن فيروز أن المشركين الأوائل لا يصلون، مستدلًا على ذلك بقوله تعالى: {وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً}"، (الأنفال، ٣٥) وقوله في بعض المشركين: {فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى}، (القيامة، ٦، ٧) وأنهم لا يزكّون مستدلًا بقوله تعالى: {وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} (فصلت، ٦، ٧) في حين أن من سماهم الشيخ محمد بمشركي زمنه هم من الملتزمين بالصلوات وأداء الزكاة (ابن فيروز، مخطوط في الرد على مذهب ابن عبد الوهاب، ورقة: ٥).

٣- يقرر ابن فيروز أن المشركين الأوائل ينكرون الساعة، وينكرون البعث، مستدلًا بقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ}، (سبأ، ٣) وقوله: {وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} (الإسراء، ٤٩) في حين أن خصوم الشيخ محمد يؤمنون بالساعة، ويؤمنون بالبعث (ابن فيروز، مخطوط في الرد على مذهب ابن عبد الوهاب، ورقة: ٥).

٤- يؤكد ابن فيروز أن المشركين الأوائل لا يؤمنون بالقرآن، وأن من خصالهم عدم الإيمان الرسول صلى الله عليه وسلم، مستدلًا على ذلك بقول الله عنهم: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}}، (سبأ، ٣١) وقوله {وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ}، (الإسراء ٩٠) في حين أن من سماهم الشيخ محمد بمشركي زمانه يؤمنون بالقرآن، ويتلونه، ويتعبدون به، كما أنهم يؤمنون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وكونه خاتم الرسل، وأنهم من أتباعه، وأهل رسالته (ابن فيروز، مخطوط في الرد على مذهب ابن عبد الوهاب، ورقة: ٥).

خامسًا: يؤكد ابن فيروز أن المشركين الأوائل والكفار الأصليين "يعدلون أصنامهم بربهم أي يجعلوها مثله"، مستدلًا على ذلك بقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُون}، (الأنعام، ١) وعند هذه المسألة يطرح ابن فيروز سؤالًا استنكاريًا فيقول: "وهل ترون الذين كفرهم ابن عبد الوهاب من أهل الرياض وغيرهم أحدًا يساوي غير الله بالله؟!" (ابن فيروز، مخطوط في الرد على مذهب ابن عبد الوهاب، ورقة: ٦).

وإمعانًا من ابن فيروز في التمييز بين المشركين الأوائل وخصوم الشيخ محمد، ورغبةً منه في لفت الانتباه إلى أن الفارق بين الطرفين كبيرٌ للغاية، بحيث تبدو المماهاة أو على الأقل المساواة بينهما غير ممكنة، يشير إلى أن الشيخ محمد كفّر أناسًا لهم جمعة، يؤدونها كل أسبوع، ولهم مؤذنون ينادون بكلمة التوحيد، ويدعون إلى صلاة الجماعة كل يوم وليلة خمس مرات، في مقابل أن المشركين الأوائل ليس لهم مساجد، ولا يصومون شهر رمضان، بل إنهم فضلًا عن كل ذلك يسعون إلى خراب المساجد، ويصدون عن ذكر الله فيها كما قال الله تعالى عنهم: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} (البقرة، ١١٤)، يقول ابن فيروز ضمن هذا السياق: "وجميع من كفرهم ابن عبد الوهاب يعمرون المساجد بذكر الله، وطاعته، ولهم جمعة وجماعة، ويحرمون ما حرم الله عليهم، ويستحلون ما أحل الله لهم، فامتازوا بذلك على المشركين، وتبين لكل ذي عقل أن الذي نسبهم إلى الكفر والشرك كاذب، وأنه رماهم بشيء هم منه بريئون" (ابن فيروز، مخطوط في الرد على مذهب ابن عبد الوهاب، ورقة: ٥).

وبعد كل هذا النقد الذي مارسه ابن فيروز، ومحاولته الدؤوبة فك الارتباط الذي عقده الشيخ محمد بن عبد الوهاب بين المشركين الأوائل ومن سماهم مشركي زمانه، ونفي المماثلة بينهما، ينتقل ابن فيروز إلى إبراز وجهة نظره حيال مسألة التكفير، حيث يؤكد أن المرء يكفي إثبات إسلامه كونه مؤمنًا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًا، مبرهنًا على هذه الرؤية بقوله صلى الله عليه وسلم: "ذاق طعم الإيمان من رضي الله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا" (ابن فيروز، مخطوط في الرد على مذهب ابن عبد الوهاب، ورقة: ٩) ويقرر ابن فيروز أن من كفرهم الشيخ محمد هم "راضون بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا" (ابن فيروز، مخطوط في الرد على مذهب ابن عبد الوهاب، ورقة: ٩) ثم يضيف مستنكرًا "يقطع رسول الله بذوق طعم الإيمان ويشهد عليهم ابن عبد الوهاب وأتباعه بالكفر" ولا يكتف ابن فيروز بهذا الحديث، بل يوظف حديثًا آخر ورد في صحيح البخاري ولفظه: "من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله فلا تخفروا الله ذمته" ليؤكد أن الشيخ محمد كفّر أناسًا كانوا ملتزمين بهذه الواجبات الدينية، وعليه فإن الشيخ محمد من منظور ابن فيروز لم يخطئ فحسب في تكفيرهم، بل عدّه بمقتضى هذا الحديث أنه "خافرُ ذمة الله وذمة رسوله" (ابن فيروز، مخطوط في الرد على مذهب ابن عبد الوهاب، ورقة: ٩) وبعد كل هذا الحجاج المتواصل من ابن فيروز، ينتقل إلى التحذير من خطورة التكفير، موردًا الأدلة الناهية عن الوقوع فيه، معتبرًا أن كلمة التوحيد كفيلة بعصمة دم المرء المسلم، مبرهنًا على ذلك بالحديث المتعلق بالصحابي أسامة بن زيد، عادًا إياه من أعظم الأدلة "على عدم جواز تكفير المقر بلا إله إلا الله"، ويضيف ابن فيروز مستثمرًا هذا الدليل، فيقول: "فإذا كان الله عتب على أسامة في قتله الرجل المقر بلا إله إلا الله، وأنزل في ذلك قرآنًا، وكذلك رسول الله... مع كون أسامة له شبهة في قتله، حيث وجده مع قوم كلهم كفار، مقيم معهم، ولا قال لا إله إلا الله إلا يوم رأى السلاح فما ظنكم بمن يكفر من هو مقر بلا إله إلا الله طائعًا مختارًا" (ابن فيروز، مخطوط في الرد على مذهب ابن عبد الوهاب، ورقة: ١٤).

ويبدو أن هذه المسائل والاعتراضات التي طرحها ابن فيروز وأنداده من الفقهاء المعارضين جعلت الشيخ محمد يصنف رسالته المشهورة: كشف الشبهات، استهدف بها في المقام الأول أتباعه، المؤمنين بدعوته، ساعيًا إلى تثبيت قناعاتهم، وتلقينهم جوابات وردود متينة، يؤكد ذلك قول ابن غنام في تاريخه: "ثم صنف الشيخ رحمه الله رسالة عامة للمسلمين، تسمى: كشف الشبهات، جوابًا لكثير من شبههم، التي أدلوا بها، وذكروها في مصنفاتهم"، (ابن غنام، ص٢٦٣) هذا النص المهم الوارد عند ابن غنام لا يمثّل الشاهد الوحيد على هذه المسألة، فثمة شاهد مهم آخر، يتمثل في إشارة الشيخ محمد في الرسالة عينها، وذلك في سياق جوابه على بعض المسائل، فقد اختتمه بقوله: "ذكرها بعض أهل الأحساء" (ابن عبدالوهاب، ص٧٩) وهذا يفضي إلى أن المقصود هو ابن فيروز دون سواه، خاصة أن الشيخ محمد حين قرر هذه العبارة، فإنه وضعها في خاتمة رده على بعض المسائل التي اعتبرها من أعظم شبه المعارضين له، والتي تتلخص في كون مخالفي الشيخ محمد يؤمنون بالله، وبالنبي محمد، ويصدقون بالقرآن، ويؤمنون بالبعث، ويؤدون الصلاة، والصيام خلافًا للمشركين في عهد النبي، هذه المسائل التي ساقها الشيخ محمد في كتابه: كشف الشبهات، هي عينها التي أثارها ابن فيروز في رسالته السابقة مما يعني أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب اطلع على رسالة ابن فيروز السابقة، وانبرى في تفنيدها، والرد عليها برسالته كشف الشبهات (ابن عبدالوهاب، ص٨٠).

لقد اتخذ الشيخ محمد من فكرة المماثلة بين من سماهم مشركي زمنه والمشركين الأوائل مدارًا لرسالته "كشف الشبهات"، ولكون الشيخ كان يستهدف أتباعه بالدرجة الأولى، فقد جاءت بنيتها الأسلوبية مرتكزة على أسئلة

وأجوبة، عمد الشيخ من خلالها إلى مخاطبة شخصٍ افتراضي، مانحًا إياه جوابات على المسائل والإشكالات التي صاغها معارضوه، وهذا ما يفسر افتتاح الشيخ لرسالته بالعبارة التالية: "اعلم رحمك الله أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة" (ابن عبدالوهاب، ص٤٩).

ولئن بدا أن مماثلة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومقارنته بين من سماهم مشركي زمنه بالمشركين الأوائل، ومن ثم إصدار حكم يقضي بتكفيرهم، وجواز قتالهم – يبدو – على الأقل في نظر معارضيه – حكمًا قاسيًا، وعنيفًا، وغير موضوعي[1] فإن الشيخ لم يتوان عن سوق المبررات الشرعية، والمسوغات الدينية التي جعلته يصدره، حيث ذهب إلى أن الالتزام ببعض مبادئ وأصول الإسلام، في مقابل جحود بعضها يعتبر كفرًا بإجماع المسلمين، إذ يرى أنه "لا خلاف بين العلماء كلهم، أن الرجل إذا صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء، وكذبه في شيء أنه كافر، ولم يدخل الإسلام، وكذلك إذا آمن ببعض القرآن، وجحد بعضه، كمن أقر بالتوحيد، وجحد وجوب الصلاة، أو أقر بالتوحيد، والصلاة، وجحد وجوب الزكاة" (ابن عبدالوهاب، ص٨٠) ومراد الشيخ من التنظير لهذه المسألة، والتنبيه عليها، اتخاذها بمثابة المقدمة، لكي يخلص إلى نتيجة مفادها أن عبادات من يسميهم مشركي زمنه، وصلاتهم، وطاعاتهم، ليست كفيلة بإسلامهم، ولا عاصمةً من تكفيرهم، طالما أنهم مخلّون ببعض أصول ومبادئ التوحيد، وحتى يوضح الشيخ محمد هذه المسألة بشكل لا لبس فيه، يقول: "فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج، فكيف إذا جحد الإنسان هذه الأمور كفر، ولو عمل بكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم؟ وإذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم لا يكفر؟! سبحان الله ما أعجب هذا الجهل" وفي سبيل دحض اعتراضات المعترضين مثل: ابن فيروز وغيره على مسألة التكفير، يقرر الشيخ محمد أنه لم يأت بجديد فيها، مبينًا أن التكفير كموضوع هو مسلكٌ شرعي سلكه من قبله من علماء الإسلام وفقهائهم منذ القدم، حيث تساءل مستنكرًا: "إذا كان الأولون لم يكفروا إلا لأنهم جمعوا بين الشرك وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، والقرآن، وإنكار البعث، وغير ذلك، فما معنى الباب الذي ذكر العلماء في كل مذهب؟! باب حكم المرتد، وهو المسلم الذي يكفر بعد إيمانه" (ابن عبدالوهاب، ص٨٢، ٨٥) والمقصود من هذا النص الذي أورده الشيخ محمد التنبيه على أن التكفير ليس مقتصرًا على الأوائل الذين أشركوا في عبادة الله، ولم يؤمنوا بالرسول، بل هو موجود، ومؤصّل في مدونات الفقهاء المتقدمين تجاه المسلمين الذين وقعوا في محظورات دينية تنافي الدين الإسلامي حيث "ذكروا أنواعًا كثيرة، كل نوع فيها يكفر،

---

(١) لا بد من الإشارة إلى أن الباحث ليس صدد الوقوف مع أي طرف من الطرفين، أو التحيز إلى أحدهما، أو إدانته، أو التثريب عليه، فالمؤرخ ليس قاضيًا كما يروم البعض وضعه، أو كما تنادي به بعض اتجاهات الكتابة التاريخية، بل ليس من مهمته إطلاق الأحكام، ولا تبني فكرة دون أخرى، بقدر ما أن مهمته مقاربة الواقع التاريخي كما تجسّدَ في الماضي قدر الإمكان، وعليه فإن المقاربة المثلى التي نرتضيها، والتي نرى أنها الأكثر إنصافًا، وموضوعية، فيما يخص ما دار بين الشيخ محمد ومعارضيه، هي توثيق التنظير الديني لكل طرف، والتأريخ لسجالهم الفكري، وحجاجهم العقدي، بما يكشف قناعات كل طرف من هذين الطرفين، وبما يضعها في سياقها التاريخي والفكري الذي نشأت فيه دون تخطئة طرف، أو تصويب طرف آخر، وغني عن البيان أن هذه المسائل رغم عراقتها التاريخية، ورغم تصرم القرون، وتطاول الدهور، إلا أنها حتى اللحظة لم تزل جذعة، بوصفها ظلت مناط خلافٍ واسع لم يُحسم – وما كان له أن يُحسم وهو بهذه الكيفية المعقدة! – بين أتباع الشيخ محمد وبين مخالفيه، نسأل الله أن يتولانا ويتولى الجميع بعفوه ورحمته.

ويحل دم الرجل، وماله، حتى إنهم ذكروا أشياء يسيرة من فعلها مثل: كلمة يذكرها بلسانه دون قلبه، أو كلمة يذكرها على وجه المزح واللعب" (ابن عبدالوهاب، ص٨٥، ٨٦).

ولكي يعطي الشيخ محمد أدلةً على صحة هذا القول، أورد الآية الكريمة، والتي جاء فيها: "{يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ} (التوبة، ٧٤)، ثم يعقب فيقول متسائلًا: "أما سمعت الله كفرهم بكلمة مع كونهم في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم يجاهدون معه، ويصلون معه، ويزكون، ويحجون، ويوحدون" (ابن عبدالوهاب، ص٨٧).

ولأن ابن فيروز كان محسوبًا على العلماء المعارضين للدعوة، فقد ذكره الشيخ محمد في إحدى رسائله، مشيرًا إليه في معرض سرده لعددٍ من العلماء المخالفين له، حيث قال: "لكن تعرف ابن فيروز أنه أقربهم إلى الإسلام، وهو رجل من الحنابلة، وينتحل كلام الشيخ وابن القيم خاصة" ويفهم من هذا النص أن الشيخ محمد يرى كفر ابن فيروز، رغم كونه الأقرب إلى الإسلام – حسب رأيه – مقارنة بأنداده من العلماء المعارضين، وعلة تكفير ابن فيروز تكمنُ في إباحته التبرك بالقبور، حيث يقول الشيخ محمد عنه إنه: "صنف مصنفًا أرسله إلينا، قرر فيه أن هذا الذي يفعل فيه عند قبر يوسف وأمثاله هو الدين الصحيح" (الدرر السنية، ص٧٨).

وإذا كان الشيخ محمد يقرر كفر ابن فيروز، فإن هذا الأخير عامل غريمه بالمثل، إذ قرر هو الآخر كفر الشيخ محمد، وهكذا فقد استحال الأمر إلى حالة من حالات التكفير، والتكفير المضاد، ولا شك في أن شدة الخصومة، وحِدّة الخلاف، والرغبة في حسم هذا الجدل الفكري، ونفي الشرعية عن أفكار الآخر المختلف، وإقصائه، وتهميشه، وربما تصفيته هي السر وراء هذا الخطاب الديني العنيف لكلا هذين العالمين، والحال أن الشيخ محمد وإن كان تكفيره لابن فيروز عرضيًا، تثوي وراءه علة إباحة التبرك بالقبور، وتقديس الأولياء، فإن تكفير ابن فيروز ما كان عرضيًا، بل مؤصلًا، استعمل فيه حججه العقلية، والأدلة شرعية، رغبةً منه في إكساب تكفيره للشيخ محمد مبررًا شرعيًا، وأساسًا متينًا للجم دعوته، والقضاء عليها، ولكي تتضح حيثيات هذه المسألة فإنه يمكن مقاربتها فيما يلي:

١- في رسالته الموسومة: الرسالة المرضية في الرد على الوهابية، استهلها ابن فيروز بالتأصيل لكفر من يقع في عددٍ من المسائل، حيث ذكر من بينها أن من قرر قولًا يفيد "تضليل الأمة أي كونهم في ضلال عن الدين والصراط المستقيم" (ابن فيروز، مخطوط) فإنه يقع في الكفر، مبرهنًا على ذلك بحشد بعض أقوال عددٍ من الفقهاء المتقدمين الذين يدعمون رأيه، وعلة كفره هنا تكمن في كون القائل بضلال الأمة يستلزم بالضرورة تكذيبه للنبي صلى الله عليه وسلم، ويستلزمُ ردًا لحديثه الذي قال: "لا تجتمع أمتي على ضلالة" (ابن فيروز، الرسالة المرضية).

٢- هذه القاعدة السابقة التي يؤصل لها ابن فيروز أراد تنزيلها على الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حيث وضعها مقدمةً كبرى ليورد بعدها خبرًا عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، جاء فيه ما نصه: "فطاغية العارض يقول بلسانه وقلمه جميع من قبله من نحو ستمائة سنة في جاهلية أعظم من جاهلية النبي"، هذا الخبر وبصرف النظر عن مفرداته الفاحشة في حق الشيخ محمد، وبصرف النظر عن صحة صدوره منه كحقيقة تاريخية، يتخذه ابن فيروز مقدمة صغرى لمقدمته الكبرى، ليجمع بين هاتين المقدمتين، ويخلص في النهاية إلى نتيجة مفادها كفر الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أو بمعنى آخر لأن الشيخ محمد يقول إن الناس في جاهلية من ستمائة سنة، فقد كان مؤدى ذلك عند ابن فيروز القول بأن الشيخ محمد يقطع بتضليل الأمة، وبالتالي فقد استبطن ذلك

تكذيبًا عمليًا للنبي، وهو ما يجعل الشيخ محمد في عداد الكفار، الخارجين عن دائرة الإسلام! (ابن فيروز، الرسالة المرضية، ص٢).

نحن هنا، إزاء محاولة دؤوبة من ابن فيروز للتأصيل بكفر الشيخ محمد، وإباحة دمه، وماله، ما يؤكد هذا القول قوله في موضع آخر من رسالته: "والحاصل أن أمر طغاة نجد لا يشكل إلا على من تشكل عليه الشمس، ولا يتوقف في تكفيرهم، وحل دمائهم، وأموالهم من له مسكة من الدين، ولا يتوقف في كون من قتلوه شهيدًا، ومن قتلهم مثابًا" (ابن فيروز، الرسالة المرضية).

والملاحظ هنا أن ابن فيروز لا يكتفي بتكفير الشيخ محمد وأتباع دعوته، بل يحضّ على قتلهم، باعتبار أن عدوّهم المقاتل لهم، هو بين أمرين، إما أن يكون قاتلًا لهم فيحظى بالثواب والأجر، أو مقتولًا فيكون في عداد الشهداء!، وهنا يقع ابن فيروز في تناقضٍ صارخ، ومفارقةٍ أقل ما توصف بأنها مفارقة فجة ففي الوقت الذي حذّر فيه من استسهال عملية التكفير، مثربًا على من يقع فيه تثريبًا شديدًا، وقع فيه – سواءً شعر بذلك أم لم يشعر – بكل وضوح حين أقدم على تكفير الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأتباعه، ولم يكن ابن فيروز مقتصرًا في رسالته المرضية على تكفير الشيخ محمد، بل ساق العديد من المسائل التي يبدو أنه رام من عرضها تنفير الناس من دعوته، والتشنيع عليه، ويمكن عرضها فيما يلي:

١- يشير ابن فيروز إلى أن الشيخ محمد "يدين بأن ذبائح أهل زمانه ومن قبلهم، لا يحل أكلها إلا أن يذبحها من تابعه، وتديّن، وأوقاف من قبله باطلة، لأنها أوقاف كفار".

٢- يذكر عن الشيخ محمد "أن لا إله إلا الله لا تدخل في الإسلام إلا من قررها بالمعنى الذي أراد".

٣- يؤكد أن الشيخ محمد يرى بطلان كتب الفقه، حيث يقول: "ويدين بأن جميع كتب الفقه لا يجوز العمل بها".

٤- يشير إلى أن الشيخ محمد يقرر "أن كل بلد يستولي عليها أتباعه مفتوحة عنوة".

٥- يذكر أن الشيخ محمد قرر أن "الهجرة واجبة، ومن لم يهاجر إليه فهو عنده كافر، ولو صدقه فيما قال" (ابن فيروز، الرسالة المرضية)، وواقع الأمر، أن هذه الادعاءات التي ساقها ابن فيروز عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ما خرجت عن ادعاءات أقرانه من الفقهاء المعارضين لها قيد أنملة، بل هي عينها حذو القذة بالقذة، أو قل حذو الفكرة بالفكرة، والعبارة بالعبارة، فإذا كان ابن فيروز ينفي المماثلة بين المشركين الأوائل ومن سماهم الشيخ محمد مشركي زمانه مميزًا بينهم في ممارساتهم الدينية، ومسلكهم الاعتقادي، فإن شيخه ابن عفالق يقرر الفكرة عينها، حيث يقول مخاطبًا ابن معمر: "فكيف بمن نطق بالشهادتين، والتزام شرائع دين الله، بأي ذنب يكفّر؟ ويستباح دمه وماله؟" (ابن عفالق، مخطوط جواب ابن عفالق على ابن معمر، ورقة: ٣) وإذا كان ابن فيروز يذهب إلى كفر الشيخ محمد بن عبد الوهاب بوصف هذا الأخير يرى ضلال الأمة، وبوصف ذلك يستبطن تكذيبًا للنبي صلى الله عليه وسلم، وردًا لحديثه، فإن ابن عفالق يكرر المسألة ذاتها، عبر قوله في رسالته لابن معمر: "فقد خرقتم الإجماع، وخالفتم الأمة، وقد ثبت بالأدلة، والبراهين القاطعة عصمة الأمة، ومن نفى العصمة عنهم، فهو إلى الكفر أقرب"، وقوله في موضع آخر: "واعلم يا شيخ عثمان أن مما اجتمعت عليه الأمة، أن هذه الأمة معصومة، لقوله صلى الله عليه وسلم: لا تجتمع أمتي على ضلالة" (ابن عفالق، مخطوط جواب ابن عفالق على ابن معمر، ورقة: ٣)، بل إن المسائل الخمس الآنفة الذكر أعلاه، مثل: كون الشيخ محمد لا يرى جواز أكل ذبائح أهل زمنه، ولا يرى أن الشهادة تعني بالضرورة إسلام المرء، إضافة إلى كونه يرى بطلان كتب الفقه، وأن البلاد التي استولى عليها أتباعه تعامل كالبلاد المفتوحة عنوة،

فضلًا عن وجوب الهجرة، كل هذه المسائل أشار إليها أقران ابن فيروز ونظرائه من الفقهاء المعارضين للدعوة، حيث ذكرها ابن سحيم في رسالته(١)، فضلًا عن سليمان بن عبد الوهاب في فصل الخطاب (ابن عبدالوهاب، ص٧٠)، وصاحب الصواعق والرعود (ابن داود، ص٤٤)، وغيرهم (الحداد، ص٨).

ولأن مثل هذه المسائل كانت على ما يبدو مثار رأي عام، فقد تطرق لها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العديد من رسائله، مفندًا إياها، مؤكدًا أنها ليست إلا افتراءات تستهدف التشغيب على دعوته، ففي إحدى رسائله عدّد المسائل التي أثارها ابن سحيم "وهي قوله: إني مبطل كتب المذاهب، وقوله: إني أقول أدعي الاجتهاد، وقوله: إني خارج عن التقليد، وقوله: إني أكفر من توسل بالصالحين" ثم أردف الشيخ محمد بما يفيد إنكاره، ونفيه لها، قائلًا: "سبحانك هذا بهتان عظيم" ولم يهمل الشيخ محمد حديثه عن معنى لا إله إلا الله، حيث قرر أن واقع المسلمين في زمنه، وممارساتهم الدينية، تتنافى مع تحقيق معناها، كونهم مخلين بتوحيد الألوهية، معتبرًا أن الإسلام الحقيقي بات غريبًا، حيث قال: "أن دين الإسلام من أغرب الأشياء، أعني دين الإسلام الصرف الذي لا يُمزج فيه بالشرك والبدعة" (رسالة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ص١٣).

هذه هي أهم الأفكار التي عارض فيها ابن فيروز الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهي لا تكاد تخرج عن الأفكار التي تبناها المعارضون من خصوم دعوة الشيخ.

المسار التعليمي:

أولى الشيخ ابن فيروز عناية بالغة بالتدريس، وتلمذ على يديه عددُ كبير من طلبة العلم، ولا ريب أنه حرص كثيرًا على أن يتبنى طلابه موقفه المعارض من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، يدعم هذا الرأي ما تفيض به دلالات بعض أبياته الشعرية، ففي إجازته لمحمد العامري الغزي التي كتبها نظمًا، ومطلعها: (ابن فيروز، مخطوط إجازة العامري، ورقة: ٤).

الحمـــــد لله الـــــذي قـــــد رفعـــا — مقـــــام مـــــن للهـــــاشمي اتبعـــا

يقول متحدثًا عن الشيخ محمد، ومحرضًا عليه وعلى دعوته:

طبـــق نجـــدًا مـــن شـــر فتنـــةٍ — أزالـــــه ربي عظـــــيم المنـــــةِ
وطهـــر الـــبلاد مـــن أتباعـــه — فالشـــر كـــل الشـــر في اتباعـــه
فإنـــه قـــد أبطـــل الأحكامـــا — بقولـــه ونشـــر الظلامـــا
ظـــلام جهـــل مفســـد للنـــاس — لـــيس لهـــم في العلـــم إحســـاس
دمـــاء أهـــل الحـــق مـــع أمـــوالهم — أباحهـــا لمقتضـــى ضـــلالهم

والحال أن الشيخ ابن فيروز نجح إلى حدٍ كبير في تكوين جيل من طلبة العلم اهتموا بنقد دعوة الشيخ محمد، والرد عليها، وتفنيد مقولاتها، أو على أقل تقدير معارضتها، والإنكار عليها، مثل: تلميذه سيف بن أحمد العتيقي، وهو أحد الفقهاء الحنابلة، الذي اهتم كثيرًا وفقًا لبعض المصادر بجمع أغلب الردود المعارضة للشيخ محمد بن عبد الوهاب (العتيقي، مخطوط تراجم علماء الحنابلة، ورقة: ٤).

وهناك أيضًا الفقيه الحنبلي إبراهيم بن ناصر بن جديد، والذي نشأ بالزبير، وارتحل في طلب العلم إلى الشام، ثم الأحساء، حيث لازم الشيخ ابن فيروز حتى أجازه سنة (١١٩٥هـ/١٧٨١م)، وكان مستقره في آخر رحلاته

(١) رسالة سليمان بن سحيم إلى من يصل إليه من علماء المسلمين، منشورة في تاريخ ابن غنام، ج١، ص٣٤٣-٣٤٧.

العلمية في الزبير بالعراق، هذا الفقيه كان من ضمن المعارضين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما يؤكد أحد المصادر، وظل كذلك حتى وفاته سنة (١٢٣٢هـ/١٨١٧م) (ابن حميد، ص٧١-٧٦)، ويُضاف إلى هذين الفقيهين عبد المحسن الأشيقري، وهو فقيه من حنابلة نجد، يعود من أشيقر بالوشم، درس على يد ابن فيروز، واختاره إمامًا، ومفتيًا بلدة الزبير بالعراق، وهذا الفقيه له ردُ على الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهو من وفيات عام (١١٨٧هـ/١٧٧٣م) (العتيقي، مخطوط)، ومن الفقهاء المعارضين أيضًا محمد بن علي بن سلوم التميمي، المولود بقرية العطار في سدير، سنة (١١٦١هـ/١٧٤٩م) (ابن حميد، ص١٠٠٧-١٠١٢)، الذي أشار أحد المصادر إلى أنه غادر نجدًا سنة (١١٩٣هـ/١٧٧٩م) واستقر بالأحساء (البسام، ص٣٠١)، حيث لازم الشيخ ابن فيروز، ثم ارتحل معه إلى العراق، ورغم أن هذا الفقيه لم يؤثر عنه أنه كتب مؤلفات في الرد على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، لكن هذا لا ينفي ما أكدته أحد المصادر الموثوقة من كونه معارضًا للدعوة (الدرر السنة، ص٥١٤، ٥٣٤)، ولعل أثره في الرد على الدعوة لم يتجل في كتابته، وإنما تجلى في أثره على تلاميذه الذين كانوا معارضين للدعوة، مثل: الشيخ عثمان بن سند[١]، والشيخ عثمان بن منصور التميمي[٢].

على أن هؤلاء الفقهاء المعارضين تبدو معارضتهم خافتة، ربما بسبب ضياع ما كتبوه حول الدعوة، أو ربما لأن مكانتهم العلمية أقل من غيرهم، أو ربما لأن معارضتهم لم تكن ضراوتها وشدتها مثل معارضة سواهم، غير أن ثمة طلابًا آخرين تبدو معارضتهم أكثر شدة، وتأثيرًا، بحيث جرى تداول كتاباتهم، ولعل أشهرهم عبد العزيز الرزيني، وعبد الله بن داود الزبيري، اللذين جاءت كتابة كليهما في مناسبات مختلفة، وسياقات متعددة، ولأن معارضتيهما على هذا النحو، فضلًا عن كون بعض ما كتباه حُفظ ضمن ما حفظ من تراث معارض للدعوة، عليه فمن الضروري إفراد كلٍ منهما على نحو مستقل، في محاولة لأخذ فكرة عن نشاطهما المناهض لدعوة الشيخ محمد، ويمكن إيضاح ذلك فيما يلي:

أولًا: عبد العزيز الرزيني

هذا الفقيه، هو حنبلي نجدي، من أثيثة بإقليم الوشم، له علاقات وثيقة مع آل فيروز، إذ درس على يد الشيخ عبد الله بن فيروز، ثم ابنه محمد، وكانت وفاته مبكرة في سنة (١١٧٩هـ/١٧٦٥م) (ابن حميد، ص٤٠٦-٤٠٨)، أي أن معارضته للشيخ محمد بدأت ربما لحظة إعلانه لدعوته قبيل وصوله إلى الدرعية، حيث ألّف رسالة في الوقف، اشتملت على مساحة كبيرة من الردود على الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهي على غرار الصواعق

---

(١) عثمان بن سند البصري: ولد في حريملاء سنة (١١٨٢هـ/١٧٦٨م)، طلب العلم في العراق، وترك عدة مؤلفات من أشهرها: مطالع السعود، الذي كان متحاملًا فيه على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وعلى الدولة السعودية الأولى. انظر: البسام، علماء نجد، ج٥، ص١٤٣-١٥٥؛ العبد اللطيف، عبد العزيز بن محمد: دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص٤٨. ولمعرفة موقفه المعارض لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وللاطلاع على بعض نصوصه. انظر: ابن سند، عثمان: مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود، تحقيق: عماد عبد السلام رؤوف، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، (١٤٣١هـ/٢٠١٠م)، ص٢٩٣، ٣١٣، ٤٣٣-٤٣٨، ٤٤٣-٤٤٦.

(٢) عثمان بن منصور التميمي: فقيه نجدي، ولد في بدايات القرن الثالث عشر الهجري بسدير، وطلب العلم في العراق على يد العديد من العلماء، كان من أشهرهم ابن سلوم الذي أجازه في سنة (١٢٤١هـ/١٨٢٦م)، له العديد من المؤلفات. توفي بسدير سنة ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م. انظر: البسام، علماء نجد، ج٥، ص٨٩-١٠٦.

والرعود انتهجت أسلوبًا مقذعًا في ثلب دعوة الشيخ محمد، والتنقص منه ومن أتباعه، فقد وصفه بـ "طاغوت اليمامة" متهمًا إياه بادعاء المهدية، ومشيرًا إلى أنه "ملأ ناحيته جورًا وظلمًا"، وعندما تطرق لولادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ذكر أنه مولود في "وادي مسيلمة" (البسام، ١٤٢٠)، وغايته هنا من استحضار التاريخ عبر الإشارة إلى حركة مسيلمة، وربطها بولادة الشيخ محمد هو إقرار أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب انطلقت من المكان عينه الذي انطلقت منه حركة مسيلمة الكذاب، والتي تعدّ من الحركات المدانة والمرفوضة في الذاكرة الإسلامية، ولأنها بهذه الكيفية بحيث تمثّل أقصى ما يمقته الضمير الإسلامي، فإنه يريد من هذا الاستحضار التأكيد على بطلان دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأنها لا يمكن أن تكون دعوة صالحة، تتوخى الخير والسلام، وهي ناشئة من الأمكنة عينها التي نشأت منها حركة مسيلمة، والواقع أن هذا الربط، واستحضار هذه الحركة يأتي تأسيًا بغيره من بقية المعارضين الذي استخدموا هذه المسألة، ووظفوها للتثريب على الدعوة، والنيل منها، ومن صاحبها[1]، الرزيني لا يكتفي بالهجوم على الشيخ محمد بن عبد الوهاب، بل يتعداه إلى نعت أتباعه بـ "الطغاة، والبغاة، والمارقين"، (الرزيني، ض٣٥٢) ووصفهم في موضع آخر بـ: "الخارجين، المارقين، الطاغين، الكاذبين، الناقصين، القاصدين، المتجبرين طهر الله منهم البلاد، وأراح منهم العباد" ولأنه بهذا الحجم من الحنق على الدعوة وصاحبها، وأتباعها، فقد اعتنى كثيرًا بتحريض من يستطيع تحريضه ضدها، ويمكن تلمس ذلك من خلال مخاطبته لقومه في سياق لومهم بتبني الدعوة، والانضواء تحت لوائها، إذ يقول مخاطبًا إياهم: "اعلموا أرشدنا الله وإياكم أنكم أدخلتم الذل على أنفسكم بمهادنتكم لهم، فلا جزى الله خيرًا من كان السبب في ذلك، يا قوم أما لكم قلوب تفقهون بها؟ أما لكم أعين تبصرون بها؟ أما لكم آذان تسمعون بها، فتحققون ما فعل طاغوت اليمامة" (الرزيني، ص ٣٢٨، ٣٢٨، ٣٢)

ثانيًا: عبد الله بن داوود الزبيري

وهو فقيه نجدي، ولد في حرمة، ونشأ بها، ودرس في العراق، والشام، ثم استقر عند الشيخ ابن فيروز في العراق، وكانت وفاته في سنة (١٢٢٥هـ/١٨١٠م)، وهذا الفقيه هو مؤلف كتاب: الصواعق والرعود في الرد على ابن سعود، وهو كتاب جاء في سياق الرد على رسالة الإمام عبد العزيز بن محمد، غير أن الهدف منه هو الرد على الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتفنيد مبادئ دعوته، حيث ناقش أفكارها بعبارات مليئة بالألفاظ النابية، ورغم جنوح المؤلف في أكثر صفحات كتابه، وانتفاء موضوعيته، إلا أن بن فيروز احتفى به احتفاءً كبيرًا، ما جعله يبادر بتقريظه، أشاد فيه بعبارات مملوءةً ثناءً وتبجيلًا، إذ قال عنه: "بادرة العصر، أعجوبة الدهر، المحرر الأوحد، من استقر على عرش الكمال وتوحد، من قسم الله له من العلم الشرعي أوفر نصيب".

وحتى يمكن معرفة سبب السعادة الغامرة، والإشادة الكبيرة الظاهرة في سطور ابن فيروز، وأهمية هذا الكتاب بالنسبة إليه، من الضروري الإحاطة بسياقه التاريخي، ويتمثل ذلك في كونه جاء ردًا على رسالة الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود التي وجهها إلى "العلماء والقضاة في الحرمين والشام ومصر والعراق وسائر علماء المشرق

(١) من الذين استحضروا هذه المسألة ابن عفالق حين قال: "كما ادعى نزيله مسيلمة بلسان مقاله، وابن عبد الوهاب ادعاها بلسان حاله". انظر: رسالة ابن عفالق إلى عثمان بن معمر، ورقة: ١٥. كما استحضرها غيره من المعارضين، مثل: علوي الحداد، وزيني دحلان. انظر: الحداد، مصباح الأنام، ص٤، ٦؛ دحلان، أحمد زيني: خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، المطبعة الخيرية، مصر، (١٣٠٥هـ)، ص٢٢٩.

والمغرب" (ابن سحمان، ١٣٤٢هـ)، والتي انطوت على العديد من القضايا الدينية التي تمثل مناط الخلاف بين دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وبين معارضيها، استهلها الإمام عبد العزيز بالتأكيد على أن غاية خلق العباد هي عبادة الله وحده، وإفراده بالعبادة، وأنها إن صرفت لغيره استحال هذا الغير إلى إلهٍ مع الله، مؤكدًا أن التوحيدين أي الربوبية والألوهية لا ينفكان عن بعضهما البعض (الرزيني، ص ٥، ٦)، وبعد هذا التأصيل انتقل الإمام عبد العزيز إلى الشفاعة موضحًا رؤيته الشرعية حيالها، مذكرًا أن ما يدعو إليه لا يخرج عن العمل بالقرآن الكريم الذي قرر أن فيه "الكفاية لمن اعتبر وتدبر" (الرزيني، ص ٧)، ثم عرّج الإمام على الدعاء وكيفيته المشروعة، مؤكدًا أن دعاء الأموات ومن هم في قبورهم ليس من الإسلام في شيء (الرزيني، ص ١٠، ١١)، وأن الارتحال لا يجوز لأجلها، وأنه لم يُشرع إلا للمساجد الثلاثة فحسب (الرزيني، ص ١٢)، واعتبر الإمام عبد العزيز أن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد هو الذي أفضى إلى الوقوع في الشرك الأكبر (الرزيني، ص ١٤)، ليخلص إلى القول إن "الموحد من اجتمع قلبه ولسانه على الله مخلصًا له، تعالى الألوهية المقتضية لعبادته في محبته، وخوفه، ورجائه، ودعائه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وحصر الدعاء بما لا يقدر على جلبه أو دفعه إلا الله وحده" (الرزيني، ص ١٦)، وأولى الإمام عبد العزيز اهتمامًا بالغًا بتوحيد الألوهية في رسالته، حيث أفاض في شرحه، ومناقشة تفاصيله (الرزيني، ص١٧)، وتناول أنواع الشرك، كما خاض في مسألة التوسل، داحضًا مسألة التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم، مفندًا مسائله الخاصة بالتوسل بغير الله (الرزيني، ص ١٩، ٢٠)، ومستدلًا على كل هذه القضايا في هذه الرسالة المطولة بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأقوال الفقهية المعتبرة.

ولأن هذه الرسالة على هذا النحو من التأصيل الشرعي، وبهذه الكيفية من حيث طرحها المعالج للعديد من الإشكالات الدينية التي تمثل شواغل ذلك العصر، فقد انبرى ابن داوود الزبيري للرد عليها في هذا الكتاب، وبسبب ذلك كانت الإشادة الكبيرة من شيخه ابن فيروز الذي اعتبر مقام تلميذه بأنه "نُصب لنصر دينه، وقمع من رام تغييره، وتبديله، وتكفير كل من خالفه، وتضليله في كل زمان" (ابن داود، ٢٠٢٢)، ويفهم من بعض نصوص تقريظ ابن فيروز أنه كان ينوي الرد على رسالة الإمام عبد العزيز، غير أن تلميذه ابن داوود سبقه إلى ذلك بهذا الكتاب وأنه "نقضها قاعدة قاعدة" (ابن داود، ٢٠٢٢)، موضحًا أن كتاب الصواعق والرعود وما انطوى عليه من حجج قوية، صرفه عن الرد على هذه الرسالة، حيث يقول في هذا السياق: "فحين أماط ذلك الشيخ نقابها، وهتك أستارها، بدا قبحها، وعوارها لكل لبيب، وحين قرأ عليّ ما عمله من هدم أساسها، وإبدا ما أحفي من فاسد نحاسها، رأيتُ أنه لم يبق من تعطيلها بقية ألحقها، ولم يترك من تخريب عامر ضلالها مقيدة أطلقها، بل كان ما عمله وافيًا في إبطالها، كاملًا في تحرير ضلالها" (ابن داود، ٢٠٢٢).

ويستنتج أحد الباحثين المعنيين بابن داود أن كتابه الصواعق والرعود يحمل خطابه تجانسًا كبيرًا مع تقريظ شيخه ابن فيروز، ما يعني تأثره الشديد بشيخه ابن فيروز، ولأن هذا الكتاب بهذه الكيفية فقد لقي أصداءً كبيرة في أوساط المعارضين لدعوة الشيخ محمد وتداولًا واسعًا بينهم (الرديعان، ١٤٤١هـ)، يقول أحدهم مادحًا إياه: "ومن أراد أن تقر عينه فعليه به، أي بكتاب الصواعق والرعود للشيخ العلامة، البحر الفهامة عفيف الدين عبد الله بن داود الحنبلي فما أظنك تجد مثله" (الحداد، ١٣٤٥هـ)، ويصفه آخر بأنه "مجلد حافل، أجاد فيه" (ابن حميد، ١٤١٦)، ومن المرجح أن هذا الكتاب لقي حظًا واسعًا من الانتشار، اضطلع بمهمة نشره المعارضون للشيخ محمد ولدعوته، وهذا ما دعا أحدهم أن يقول مشيدًا به: "وقد انتشر هذا الكتاب، واطلع عليه الفحول، وأحسنوا الثناءات عليه" (ابن عبداللطيف، ص٤٥)، والحال أن هذا الكتاب عند فحصه والنظر فيه فإن نصوصه تدور

حول عددٍ من المحاور، بعضها جاء ليناقش رسالة الإمام عبد العزيز، والتي تشكل رسالته علّة تأليف هذا الكتاب، في حين أن بعضها تركز حول شخص الشيخ محمد بن عبد الوهاب وسيرته، وأخباره، كما أن ثمة نصوصًا أخرى ومساحات من هذا الكتاب تمحورت حول دعوة الشيخ محمد، ومحاولة إثبات بطلانها، وكونها مخالفة لمقولات أعلام الأمة خاصة ابن تيمية وابن القيم، وإذا كانت هذه الموضوعات هي الموضوعات التي يتوزع عليها كتاب ابن داود، فإن معالجته لها جاءت متسمة بألفاظٍ نابية، ودعاوى تتفق تمامًا مع خصوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مثل: ابن فيروز، وابن عفالق، وابن سحيم وغيرهم.

وبالعودة إلى تقريظ ابن فيروز فلئن كان هذا التقريظ ذا طابعٍ تبجيلي، كاله ابن فيروز بلا حدّ لتلميذه، فإنه من جهة أخرى ذو طابع شتائمي مقذع بحق الشيخ محمد بن عبد الوهاب، بحيث كان هذا التقريظ يؤدي مهمة مزدوجة، تتضمن مدائح مفرطة في حق ابن داوود الحنبلي، في مقابل إساءات بالغة للشيخ محمد بن عبد الوهاب، بل أكثر من ذلك حين انحدر هذا التقريظ إلى مستوى لا قعر له، وعلى نحو يجرده من كونه عالما شرعيًا، وذلك بسبب قذف الشيخ محمد، وتناول عرضه، وعرضي أبويه، حيث قال عن والد الشيخ محمد ما لفظه "لعل الشيخ [يعني والد الشيخ محمد] غفل عن مواقعة أمه [يعني والدة الشيخ محمد] فسبقه الشيطان إليها فكان أبًا لهذا المارد" (ابن داود، ص ٢٧).

وهنا، ينبغي التوقف مليًا عند هذا النص، الذي لا يمكن وصفه سوى أنه نص في غاية البذاءة، ينوء بالموبقات، المخالفة ليس للقيم الإسلامية التي يدعي ابن فيروز بأنه يقاتل من أجلها فحسب، بل هي مخالفة أيضًا لمعاني الشرف والعفة في الثقافة العربية، فضلًا عن أخلاق الإنسانية، وكل من انتسب إلى العلم، وحيال هذا النص – الذي تعمدنا كتابته كما ورد تأكيدًا على مصداقيته وموثوقيته – يذهب أحد الباحثين في تحليله له إلى كونه جاء مرتبطًا بوضع ابن فيروز المعيشي البائس أثناء كتابته لهذا التقريظ، ذلك أنه كتبه في الزبارة بقطر بعد أن ذهب إليها في غضون عام (١٢٠٨هـ/١٧٩٣م) عشية سيطرة قوات الدولة السعودية الأولى على الأحساء ما جعله في وضع نفسي صعب، وعليه فربما كانت هذه الألفاظ ناجمة عن بؤسه المترتب على اغترابه، على أن هذا الباحث عاد مستدركًا على تفسيره بما يضمر عدم جزمه به، عندما أشار إلى أن عداء ابن فيروز الشديد للشيخ محمد بن عبد الوهاب هو عداء قديم منذ إقامته في الأحساء، ولم يكن أبدًا مرهونًا بارتحاله إلى العراق (الرديعان، ١٤٤١)، والحال أن ثمة فارقًا – في تقديري – بين العداء، وبين استعمال هذه اللغة الفاحشة، وعليه فربما يكون الانحدار في القول، والقذف بهذه الكيفية الشنيعة يبدو بالفعل مرتبطًا بارتحال ابن فيروز من الأحساء، وشعوره بالخسارة الكبيرة في معركته ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والتي كان من نتائجها اغترابه، ومفارقة وطنه الأحساء.

ثالثًا: المسار السياسي

سلك الشيخ محمد هذا المسار في معارضته للشيخ محمد بن عبد الوهاب منذ وقت مبكر، مستثمرًا مكانته الرمزية، وشبكة علاقاته الواسعة، فمنذ أن كان مستقرًا في الأحساء، والدولة السعودية الأولى لم تزل داخل منطقة نجد كان يلهج بعدائها الشديد، ولا ريب أنه كان متابعًا لانتصاراتها، وصراعاتها العسكرية داخل منطقة نجد، وهذا ما يفسر رسالته الأولى التي جاءت في سياق صراع الدرعية مع الرياض، ومع تمدد خريطة الدولة السعودية الأولى، وازدياد قوتها، فإن موقف الشيخ ابن فيروز المعارض منها رغم انتشارها ما تزحزح عنه قط، إذ استخدم فيها كل الوسائل من أجل القضاء عليها، وعليه فمن المؤكد أن الدولة السعودية الأولى عانت كثيرًا من لسان الشيخ ابن فيروز وتحريضه المستمر ضدها، والذي زاد مع تطلع الدولة السعودية الأولى إلى ضم الأحساء، بدءًا من تمكنها من

توحيد منطقة نجد في مطلع القرن الثالث عشر الهجري، فمنذ عام (١٢٠٢هـ/١٧٨٧م) والتي الدولة السعودية الأولى حملاتها العسكرية على الأحساء بهدف السيطرة عليها، وتقويض إمارة بني خالد التي كانت من أشد القوى السياسية المعارضة للدولة السعودية الأولى (ابن غنام ١٤٣١).

ومع دخول النصف الثاني من العقد الأول من القرن الثالث عشر الهجري أصبحت كفة الدولة السعودية الأولى راجحة، حتى تمكنت من السيطرة على الأحساء عام (١٢٠٧هـ/١٧٩٢م) (ابن بشر، ص٢٠٠-٢٠١)، غير أن هذا العام شهد ثورة أهالي الأحساء على النفوذ السعودي، وتشير بعض المصادر النجدية إلى أن سبب ذلك هو إزالة الدعاة السعوديين للقباب، والمباني على القبور (ابن بشر، ٢٠٣، ٢٠٤)، ومن المرجح أن ابن فيروز كان من العلماء الذين حرضوا الأهالي على ثورتهم، والتي كان من تداعياتها قتل العديد من دعاة الدولة السعودية الأولى، ما دعا الدرعية إلى إرسال حملة عسكرية قادها الأمير سعود بن عبد العزيز الذي نجح في إجبار أهالي الأحساء على الصلح عام (١٢٠٨هـ/١٧٩٣م) (ابن غنام، ١٤٣١)، وفي مقابل ذلك قبل الإمام عبد العزيز هذا الصلح، وعيّن براك بن عبد المحسن أميرًا على الأحساء وأمره "أن يجلي من الأحساء رؤساء الفتن محمد بن فيروز وأحمد بن حبيل ومحمد بن سعدون فأخرجهم براك منه" (ابن بشر، ٢٠٦)، ولا ريب أن هذا النص يدعم الرأي القائل بضلوع ابن فيروز في هذه الأحداث، والتي يبدو أن إجلاءه كان ردًا على تحريضه ومعارضته.

اضطر الشيخ ابن فيروز إلى الارتحال، ويبدو أنه نزل في الزبارة، ثم بعد عام (١٢١٠هـ/١٧٩٥م) انتقل إلى البصرة في العراق، وهناك استمر على عدائه الشديد ضد الدولة السعودية الأولى ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مستثمرًا في ذلك مكانته العلمية الكبيرة، حيث عمل جاهدًا على تحريض القوى السياسية المناهضة لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وفي هذا الصدد يشير ابن حميد في السحب الوابلة في سياق ترجمته له إلى أنه "كاتب السلطان عبد الحميد خان"، وأنه "كان يستنجده على قتال البغاة الخارجين بنجد، رأيت مسودته بخط ابنه النجيب الشيخ عبد الوهاب، وافتتحه بقصيدة من نظمه ونثر بليغ، فتحرك لذلك، ولكن اخترمته المنية قبل إتمام مرامه" (ابن حميد، ٩٧٣).

لقد استثمر الشيخ ابن فيروز علاقاته الواسعة مع أعيان العراق ورجالاته(١)، حيث كاتب أيضًا والي العراق العثماني سليمان باشا الذي ولّى ثويني بن عبد الله السعدون زعامة المنتفق، وأوكل إليه قيادة الحملة العسكرية المتجهة من العراق إلى الدولة السعودية الأولى (ابن بشر، ٢١٨، ٢١٩)، ولا ريب أن الشيخ ابن فيروز كان من أكبر الداعمين لإمارة ثويني بن عبد الله على المنتفق، محرضًا إياه على استرداد إقليم الأحساء من الدولة السعودية الأولى، وفي هذا السياق يورد ابن بشر نصًا مهمًا مشيرًا فيه إلى ملابسات تعيين ثويني بن عبد الله إمارة المنتفق وأن هذا التعيين جاء بعد مكاتبات ممن سماهم: "الجالين من أهل نجد في الزبير، والبحرين، والكويت وغيرهم، وكاتبوا باشا بغداد، وحرضوه، وزينوا له ذلك، وكاتبه كثير من الرؤساء والعلماء سيما محمد بن فيروز، فإنه الذي يحكم ذلك، ويبذل جهده" (ابن بشر، ص٢١٨)، والملاحظ هنا من نص ابن بشر أثر ابن فيروز الكبير في الدفع باتجاه تسيير هذه الحملة العسكرية، وتورد بعض المصادر التاريخية طائية ابن فيروز المادحة لثويني بن عبد الله، والمحرضة له

(١) لعل ما يبرهن على حجم علاقاته السياسية ما ذكره أحد المصادر من مذاكرات ومطارحات شعرية بين الشيخ ابن فيروز وبين والي البصرة عبد الله آغا بما يثبت متانة علاقاته وتعددها. انظر: العسافي، تراجم فضلاء الزمن، ورقة: ٤٤.

على استئصال أتباع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب حيث أورد ابن غنام وابن بشر أحد أبياتها، وهو: (ابن غنام، ١٤٣١).

أنامل كف السعد قد أثبتت خطّا   بأقلام حكام لنا حررت ضبطًا

وهي عينها القصيدة التي ساقها أحد المصادر، والتي ورد فيه أن مطلعها: (العسافي، مخطوط).

لك الطالع الميمون بالسعد قد وطا   وأقلام أيدي النصر قد كتبت خطا

على أن هذه الحملة لم تحقق ما كان يؤمله ابن فيروز، بسبب مقتل ثويني بن عبد الله، غيلة على يد أحد الموالي، ما حدا بابن فيروز إلى رثائه برائية جاء في بعض أبياتها: (العسافي، مخطوط).. [الكتاب مطبوع كان الأفضل العودة اليه].

ستبكي عليك المكرمات بأسرها   وراياتك الغراء وأنديـة خضـر

فسحقًا لقين قد رقى منك مرتقى   عليًّا وكم قد صيد بالخرب الصقر

ويظهر أن هذه القصيدة ذاع خبرها، ما جعل ابن غنام من باب المنافحة عن الدعوة، ينبري لنقضها، بقوله: (ابن بشر، ص٢٣١).

لقد فلّ عضب الشرك بل ثلّ عرشه   وسل حسام واندرس الشر

وحالت مغانيه وأعفت ربوعه   وزالت مبانيه فساحته صغر

برب طعيس لا طعيس تقشعت   سحائب رجز بالمنايا لها شر

وهكذا يتضح أن المعارضة الشديدة التي اضطلع ابن فيروز بها تجاه دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والتي اتخذت مسارات متعددة، عبر ما يمكن تسميته بمسار الجدل الشرعي، المتمثل فيما دونه ابن فيروز من رسائل وردود، وعبر المسار التعليمي والمتمثل في تخريج أجيال من الطلبة المعارضين، فضلًا عن المسار السياسي المتضمن تحريض السلطات والقوى السياسية، ورغم ضراوة هذه المعارضة، المتجلية في هذه المسارات الثلاثة إلا أنه لم يُكتب لها النجاح، بل استمرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الانتشار، والاتساع، بالتزامن مع اتساع رقعة الدولة السعودية الأولى، والتي حانت وفاة الشيخ ابن فيروز في عام (١٢١٦هـ/١٨٠١م) مع بلوغ نفوذها إلى تخوم العراق.

الخاتمة:

لقد حاولت هذه الدراسة تقديم مقاربة تاريخية لمعارضة الشيخ محمد بن فيروز لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عبر النظر من زاويتين اثنتين، أولاهما: زاوية السياق التاريخي الذي تمحورت فيه هذه المعارضة، وثانيهما: زاوية التطور التاريخي لمعارضة هذا الفقيه الحنبلي، مع ربطها بالواقع التاريخي الخاص بمسيرة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتوسع الدولة السعودية الأولى.

هذه الدراسة من جانب آخر حاول الباحث تفسير معارضة الشيخ ابن فيروز، ومراقبة العوامل الكامنة التي دفعته إلى اتخاذ موقفه الحاد من الدعوة، وصاحبها رغم ما يربط الشيخين من روابط متينة، تتوزع بين رابطة الوحدة المذهبية، فضلًا عن القبلية، والقرابية.

ورغم كون موضوع هذه الدراسة يعد من الموضوعات غير المطروقة، فضلًا عن كونه يعاني من شحّ كبير في المصادر التاريخية، إلا أن هذه الدراسة خرجت بالعديد من النتائج، لعل أهمها:

١- كشفت الدراسة عن أن الشيخ ابن فيروز ألّف العديد من الرسائل، والردود على الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأن إحدى رسائله وردوه كانت مبكرة، تعود إلى الصراع العسكري الذي اندلع بين الدرعية والرياض، بدءًا من عام (١١٥٩هـ/١٧٤٦م).

٢- بيّنت الدراسة أن ردود الشيخ ابن فيروز كان لها أصداءٌ واسعة، ما جعل الشيخ محمد بن عبد الوهاب يكتب رسالة: كشف الشبهات، التي تبيّن من خلال هذه الدراسة أن من أسباب تأليفها، هو الرد على المسائل التي أثارها الشيخ ابن فيروز.

٣- أوضحت الدراسة أن من أهم العوامل التي دفعت الشيخ ابن فيروز إلى معارضته هو تأثره بشيوخه، ومن بينهم أبوه، الذي ثبتت معارضته للشيخ محمد بن عبد الوهاب في بعض المسائل.

٤- اعتنت الدراسة بتصوف الشيخ ابن فيروز، ودلّلت على كونه ينحو منحى طرقيًا صوفيًا، بحيث كان هذا الاتجاه أحد العوامل الرئيسة في معارضة الشيخ ابن فيروز.

٥- كشفت الدراسة عن العامل الجهوي، وأثره الكبير في معارضة الشيخ ابن فيروز، فرغم كونه ينتمي في الأصل إلى منطقة نجد إلا أن ولادته، وإقامته في الأحساء، أضمر لديه رؤية سلبية تجاه منطقة نجد، وهو ما انعكس على موقفه من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، بحيث كانت هذه الرؤية السلبية واحدة من محددات معارضته، والتي ظهر أثرها في الكثير من عبارات ومفردات ردوده على الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

٦- تتبعت الدراسة المسارات التي سلكها الشيخ ابن فيروز في معارضته للشيخ محمد بن عبد الوهاب، والتي تبين من خلالها أنها مسارات متعددة، لا ترتهن إلى مسار واحد.

٧- أبرزت الدراسة أن من بين مسارات معارضة الشيخ ابن فيروز مسار الجدل الشرعي، أو الفكري، والذي بثّه ابن فيروز في رسالته المسماة: الرسالة المرضية، أو رسالته الأخرى الرد على مذهب ابن عبد الوهاب، أو حتى تقريظه لكتاب تلميذه ابن داود الحنبلي في الصواعق والرعود.

٨- أظهرت الدراسة المسار التعليمي الذي سلكه ابن فيروز في معارضته للشيخ محمد بن عبد الوهاب، والمتمثل في تخريج عددٍ من طلبة العلم الذين تبنوا موقفه الحاد من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مستعرضةً في ذلك أسماء عددٍ منهم، وما أنتجوه من مؤلفات مناهضة للدعوة، وللشيخ محمد بن عبد الوهاب.

٩- أفاضت الدراسة في أعمال الشيخ ابن فيروز الخاصة بتحريضه للقوى السياسية ضد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حيث وضعت هذه الأعمال نفسها ضمن مسار خاص، سمّته الدراسة بالمسار السياسي، بوصفه يستهدف كل السياسيين من الولاة والقادة الذين كانوا على علاقة بالشيخ ابن فيروز، هذا المسار يعد مسارًا موازيًا للمسارين الآخرين، سواءً مسار الجدل الشرعي، أو المسار التعليمي، والتي سلكها الشيخ ابن فيروز في سبيل مناوأته لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

المصادر والمراجع:

أولًا: المخطوطات

ابن عفالق، محمد بن عبد الرحمن. *تهكم المقلدين في مدعي تجديد الدين، (مخطوط)*. ضمن مجموع ديني، مكتبة الجامعة الملكية بتوبنجن: ألمانيا.

ابن فيروز، محمد بن عبد الله. *رسالة في الرد على مذهب ابن عبد الوهاب، (مخطوط)*. أصلها في مكتبة الشيخ إبراهيم آل محمود بالبحرين، وقد زوّدني بها فضيلة الشيخ د. حسن آل حسين بنسخة منها.

إجازة ابن فيروز للسيد محمد العامري، (مخطوط). ورقة: ٣، مكتبة الشيخ د. حسن آل حسين، ولدى الباحث نسخة منها.

تائية ابن فيروز، (قصيدة مخطوطة). ورقة: ١، مكتبة الشيخ د. حسن آل حسين الخاصة بالأحساء، ولدى الباحث نسخة منها.

جواب الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عفالق إلى الأمير عثمان بن معمر. مكتبة جامعة برلين: ألمانيا، ولدى الباحث نسخة منها.

خاتمة مسند الإمام أحمد، (مخطوط). صورة منها في مكتبة حمد العنقري، ولدى الباحث نسخة منها.

رسالة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف بشأن سؤال ورده من الكويت، (مخطوط). مؤرخة في ٩ ربيع الأول عام (١١٧٤هـ). ورقة: ٣، مكتبة الشيخ د. حسن آل حسين بالأحساء، ولدى الباحث صورة منها.

رسالة الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عفالق إلى الأمير عثمان بن معمر. مكتبة جامعة برلين: ألمانيا، ولدى الباحث نسخة منها.

رسالة الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عفالق إلى الأمير عثمان بن معمر، (مخطوط). ورقة: ٢٦، ضمن مجموع ديني في العقائد، مكتبة الدولة: برلين بألمانيا.

رسالة عبد العزيز الزريني إلى أهل أثيثة. منشورة لدى البسام، أحمد بن عبد العزيز: الشيخ أحمد بن حمد الخليلي في كتابه وسقط القناع، مجلة الدرعية، السنة الثانية، العدد (٥)، محرم (١٤٢٠هـ/يناير ١٩٩٩م).

رسالة عبد العزيز الزريني إلى أهل أثيثة. منشورة لدى البسام، أحمد بن عبد العزيز: الشيخ أحمد بن حمد الخليلي في كتابه وسقط القناع، مجلة الدرعية، السنة الثانية، العدد (٥)، محرم (١٤٢٠هـ/يناير ١٩٩٩م)، ص٣٢٥.

العتيقي، صالح بن سيف. *تراجم علماء الحنابلة بالأحساء، (مخطوط)*. ورقة: ٤، مكتبة الشيخ حسن آل حسين، ولدى الباحث نسخة منها.

العتيقي، صالح بن سيف. *ترجمة ابن فيروز، (مخطوط)*. ورقة: ٢، مكتبة أ. علي الصيخان، ولدى الباحث نسخة منها.

العتيقي، صالح بن سيف: *مجموع العتيقي، (مخطوط)*. مكتبة د. الشيخ حسن آل حسين بالأحساء: ولدى الباحث نسخة منه.

العسافي، محمد. *تراجم الفضلاء، (مخطوط)*. ورقة: ٤٥، مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود، قسم المخطوطات: برقم: ٩١٦٤، ومنه نسخة لدى الباحث.

فتوى صادرة من ابن فيروز والسفاريني والزريني بشأن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. نسخة منها لدى د. حمد العنقري، ولدى الباحث صورة منها.

ثانيًا: المصادر المطبوعة

تاريخ ابن غنام. اعتنى به: سليمان بن صالح الخراشي. دار الثلوثية: الرياض، (١٤٣١هـ/٢٠١٠م).

ابن حسن، عبد الرحمن. *المقامات*. تحقيق: عبد الله بن محمد المطوع، دارة الملك عبد العزيز: الرياض، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).

الحداد، علوي بن أحمد. *مصباح الأنام وجلاء الظلام*. المطبعة العامرة: مصر، (١٣٢٥هـ).

ابن حميد، محمد بن عبد الله. *السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة*. تحقيق: بكر أبو زيد وعبد الرحمن العثيمين، ط١، مؤسسة الرسالة: بيروت، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

ابن داوود، عبد الله. *الصواعق والرعود*. تحقيق: عبد الله بن راشد المضري، ط١، مكتبة الجابي: إيرلندا، (٢٠٢٢م).

دحلان، أحمد زيني. *خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام*. المطبعة الخيرية: مصر، (١٣٠٥هـ).

الدرر السنية في الأجوبة النجدية. جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، ط٣، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

ديوان ابن الأمير الصنعاني. قدم له وأشرف على طبعه: علي السيد صبح المدني، ط١، مطبعة المدني: القاهرة، (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م).

ابن سحمان، سليمان. *الأسنة الحداد في رد شبهات علوي الحداد*. ط٢، مطابع الرياض: (١٣٧٦هـ).

ابن سحمان، سليمان. *الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية*. ط١، مطبة المنار: مصر، (١٣٤٢هـ).

ابن سند، عثمان. *سبائك العسجد في أخبار نجل رزق الأسعد*. تحقيق: حسن بن محمد آل ثاني، ط١، مركز حسن بن محمد آل ثاني للدراسات التاريخية: الدوحة، (٢٠٠٧م).

ابن سند، عثمان. *مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود*. تحقيق: عماد عبد السلام رؤوف، ط١، الدار العربية للموسوعات: بيروت، (١٤٣١هـ/٢٠١٠م).

الشوكاني، محمد بن علي. *البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع*. تحقيق: محمد حسن حلاق، ط١، دار ابن كثير: دمشق، (١٤٢٧هـ/٢٠١٦م).

ابن عبد الوهاب، سليمان. *فصل الخطاب*. تحقيق: لجنة من العلماء، (د. م. ن).

ابن عبد الوهاب، عبد الله بن محمد. *رسالة في حكاية المباحثة مع علماء مكة في حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب*. دراسة وتحقيق: صالح بن عبد العزيز سندي، ط١، دار اللؤلؤة: بيروت، (١٤٣١هـ).

ابن عبد الوهاب، محمد. *كشف الشبهات*. تحقيق وتعليق: عبد الله عايض القحطاني، تقديم: عبد الرحمن صالح المحمود، دار الصميعي: الرياض.

ابن فيروز، محمد بن عبد الله. *الرسالة المرضية في الرد على الوهابية*. بومباي بالهند، (١٣٠٦هـ).

مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب. تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة، مليار للاستثمار: بيروت، (٢٠١٠م).

مجموعة التوحيد، الأمانة العامة لمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية. الرياض، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

ثالثًا: المراجع والدراسات

البسام، عبد الله بن عبد الرحمن. *علماء نجد خلال ثمانية قرون*. ط٢، دار العاصمة: الرياض، (١٤١٩هـ).

الرديسي، حمادي وأسماء نويرة. *الرد على الوهابية في القرن التاسع عشر الميلادي (نصوص الغرب الإسلامي أنموذجًا)*. ط١، دار الطليعة: بيروت، (٢٠٠٨م).

عبد الرحيم، عبد الرحمن. *الدولة السعودية الأولى*. ط٥، دار الكتاب الجامعي: القاهرة، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

آل عبد القادر، محمد بن عبد الله. *تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد*. الأمانة العامة لمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

العبد اللطيف، عبد العزيز بن محمد. *دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب*. دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض: (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

العثيمين. *بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية*. ط٢، مكتبة التوبة: الرياض، (١٤١١هـ/١٩٩٠م).

العثيمين، عبد الله صالح. *الشيخ محمد بن عبد الوهاب حياته وفكره*. ط٢، دار العلوم: الرياض، (١٩٨٦م).

ابن عساكر، راشد. *منفوحة في عهد الدولة السعودية الأولى والثانية*. دار درر التاج للنشر والتوزيع.

رابعًا: المجلات والدوريات

الرديعان، حسان بن إبراهيم. *عبد الله بن داود الزبيري وكتابه الصواعق والرعود في الرد على ابن سعود*. دارة الملك عبد العزيز: الرياض، (١٤٤١هـ/٢٠١٩م)، ص٣٤، ٣٥.

آل عبد اللطيف، عبد العزيز بن محمد. موقف عثمان بن معمر من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. بحث منشور في *مجلة دارة الملك عبد العزيز*، العدد(٣)، السنة: ٣٢، رجب (١٤٢٧هـ).

العصيمي، بندر بن مطلق. موقف علماء الأحساء من الدعوة الإصلاحية (١١٥٥-١٢١٦هـ/١٧٤٢-١٨٠٢م)، *مجلة الجمعية التاريخية السعودية*، العدد: ٢٩، رمضان (١٤٣٥هـ/ يوليو ٢٠١٤م).